

البَابُ الثَّانِي

الطَّرِيقُ

- الفصل الأول : الطريق في جوه المادى .
- الفصل الثانى : الطريق في جو القدوة والتأسى .
- الفصل الثالث : الطريق في جوه الأخلاقى .
- الفصل الرابع : الطريق في جو التوبة .
- الفصل الخامس : الطريق في جو الإخلاص .
- الفصل السادس : الطريق في جو المعراج .
- الفصل السابع : الطريق من زاوية الولاية والكرامات .
- الفصل الثامن : متاثرات عن الطريق في الحكم والمواعظ والنصائح والتوجيهات



الفصل الأول الطريق في جوه المادى

بلغ سهل النضوج ، والنضوج الروحى بتوفيق الله بعد جهاد ومجاهدة ، بعد ذكر وعبادة ، بعد صوم وسياحة : وحينما أذن الله له فى الدعوة إليه أخذ يدعو إليه على بصيرة ، ويرسم الطريق إليه على هدى .

والطريق الذى رسمه إنما هو نتيجة خبرة عالمة ، ونتيجة وصل إليها عالم مجرب لقد سار سهل مع التجربة الروحية فى مسالكها ، ومدارجها ، ومعارجها ، لقد عاشها ؛ لقد كان يحياها حياة الذكى المتبصر العالم ، لقد عاش التجربة الروحية طويلاً وعاشها عرضاً ؛ لقد فنى فيها فكان هو هى ...

ورسمها .

كيف رسمها ؟ ما هى سماتها ؟ ما الطريق ؟

والطريق له أجواء مترابطة ، متلازمة أو متلاحمة ، ونبدأ ، بتيسير الله بالكتابة عن الطريق فى جوه المادى حسبما خطه سهل .

ونعنى بالطريق فى جوه المادى : الحياة من ناحية المأكل والمشرب . وبعض الناس لا يبالى بطعامه وشرابه من ناحية الحل والحزمة ، وبعضهم لا يهتم الاهتمام الدقيق لذلك ، ولكن الصوفية يرون أن أكل

الحلال إنما هو الخطوة الأولى للمادية فى الطريق إلى الله ومثلها فى هذا الجانب مثل التوبة فى الجانب الروحى ، يقول سهل : « من أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى ، علم أو لم يعلم »^(١) .
ومن عصت جوارحه ، ومن غلبته جوارحه فليس له فى طريق الله نصيب .

ولا مناص من الابتعاد عن أكل الحرام حتى لا تتمرد الجوارح ، وحتى لا يكون ارتكاب للإثم ، وأكل الحرام نفسه إثم باعث على الإثم .

وقد يقول قائل إن هذه المسألة أمرها هين ، فالتناس عادة يأكلون الحلال من مرتباتهم ، أو من مزارعهم ، أو من مهنتهم ...
بيد أن الصوفية لا ينظرون إلى الأمور هذه النظرة السهلة ، إنهم يتحرجون ويتساءلون : أدخل هذا المال ربا ؟

أدى الإنسان فيه حق الله من الزكاة ؟

أدى الإنسان فيه حق الله من ناحية الأمانة فى العمل ، ومن ناحية إتقانه : إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه ؟ وإن من أخذ الأجر حاسبه الله على العمل ، فهل كان العمل مجزياً بالنسبة للأجر ؟
هل دخل هذا المال مال من الأيتام ؟

وأسئلة كثيرة من هذا النمط ، هى مظهر من مظاهر الحرص على أن يعيش فى الجو الحلال الصافى ، وذلك أن :

(١) الكواكب الدرية .

من أحب أن يكشف بآيات الصديقين ، فلا يأكل إلا حلالاً ،
ولا يعمل إلا في سنة أو لضرورة^(١) على حد تعبير سهل :
ورائه ، كما يقول : « من لم يكن مطعمه من الحلال ، لم يكشف
عن قلبه حجاب ، وتسارعت إليه العقبات ، ولا تنفعه صلاته ،
ولا صومه ، ولا صدقته »^(٢) .

وقد بين سهل النتيجة العامة ، لأكل الحرام بقوله :

« يأتي على الناس زمان يذهب الحلال من أيدي أغنيائهم وتكون
أموالهم من غير حلها ، فيسلط الله بعضهم على بعض : يعنى بالأذى
والمرافعات عند الحكام .

فتذهب لذة عيشهم ، ويلزم قلوبهم خوف فقر الدنيا ، وخوف
شماتة الأعداء .

ولا يجد لذة العيش إلا عبيدهم ومماليكهم ، وتكون سادتهم في بلاء
وشقاء وعناء وخوف من الظالمين .

ولا يستلذ بعيش يومئذ إلا منافق لا يبالي من أين أخذ ، ولا فيما
أنفق ، ولا كيف أهلك نفسه ؟ »

(٢)

أكل الحلال ... ومع ذلك فإن هذا الحلال نفسه ، لا يؤدي إلى
خير إذا أسرف الإنسان فيه :

(١) الكواكب الدرية .

(٢) الطبقات الكبرى للشعراني .

« ذلك أن البطنة أصل الغفلة » كما يقول سهل :
والدنيا - كما يرى - حرام على صفوة خلق الله ، لا ينالون فيها
إلا بقدر الضرورة»^(١) .

« ومادامت النفس تشتهي المعصية ، فلا يصل للقلب شيء من نور
الطاعة ، فأدبوا أنفسكم بالجوع والعطش»^(٢) .

وعامة الناس معينون عناية شديدة بالأكل والشرب ، وبعضهم
لا هم له إلا ذلك ، ويبين سهل أنواع عيش الناس ومنازلهم من
ذلك فيقول :

« العيش على أربعة أوجه :

عيش الملائكة فى الطاعة ، وعيش الأنبياء ، فى العلم وانتظار الوحي
وعيش الصديقين ، فى الاقتداء ، وعيش سائر الناس عالماً كان أو جاهلاً
زاهداً كان أو عابداً ، فى الأكل والشرب » .

ويقول سهل : الضرورى للأنبياء والقوام الصديقين .

والقوت للمؤمنين ، والمعلوم للبهائم .

ويعنى بالمعلوم . الأكل الذى ليس ضرورة ، ولا قواماً ، ولا قوتاً
إنما هو زائد على ذلك ، على أن الشبع بمعناه الحقيقى لا يؤدى إليه
الأكل فحسب .

فمن ظن أنه يشبع من الخبز : جاع » .

(١) الكواكب الدرية : للمناوى .

(٢) الكواكب الدرية .

والإنسان يمكنه أن يعيش أياماً دون أن يشعر بلهيب الجوع ، وقد
سئل سهل عن لا يأكل أياماً : أين يذهب لهب جوعه ؟

فقال : يطفئه نور القلب .

على أنه من الطريف أن يسأل رجل سهلاً ، فيقول له :
يا أستاذ ، أى شيء القوت ؟

قال : الذكر الدائم .

قال الرجل : لم أسألك عن هذا ، إنما سألتك عن قوام النفس .

فقال : يارجل لا تقوم الأشياء إلا بالله .

فقال الرجل : لم أعن هذا ، سألتك عما لا بد منه .

فقال : يا فتى لا بد من الله .

كان سهل ، يوجه إلى الله حتى حينما يسأل عن الناحية المادية .

وبعد : فهذه بعض أقوال سهل فيما يتعلق بذلك ، إنه يقول

لا يرى فى القيامة عمل بر أفضل من ترك فضول الطعام ، والافتداء
المصطفى ﷺ فى أكله ويقول :

لم ير الأكياس شيئاً أنفع من الجوع للدين والدنيا .

ويقول :

لا أعلم شيئاً أضر على طلاب الآخرة من الأكل .

ويقول :

جعل العلم والحكمة من الجوع ، وجعل المعصية والجهل فى الشبع .

ويقول :

ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى فى ترك الحلال ، وقد قال فى الحديث : « ثلث للطعام » فما زاد فإنما يأكل من حسناته .

ويقول :

إنما صار الأبدال أبدالاً بإخماص البطون والصمت والسهر والخلوة .

ويقول :

رأس كل بر بين السماء والأرض الجوع ، ورأس كل فجور بينهما الشبع .

ويقول :

إقبال الله على العبد بالجوع والسقم والبلاء إلا من شاء كله .

ويقول :

لو كانت الدنيا دماً عبيطاً كان قوت المؤمن منها حلالاً لأنه أكله عند الضرورة بقدر القوام فقط :

ويقول :

إنما حجب الخلق عن مشاهدة الملكوت ، وعن الوصول : بسوء المطعم وأذى الخلق .

(٣)

الأكل الحلال وعدم الإسراف فيه :

ولا بد من أمر ثالث حتى تنتهى من : « الطريق فى جوه المادى » .

إن الناس يتكالبون على الحياة ويجرون وراء العيش فى غير إجمال ولا رفق فى الطلب وإنما فى نهم وفى تهافت .

ويحاول سهل ، أن يجعل الناس يجمعون فى الطلب ، ويفرقون فى الجرى وراء الدنيا ، ويجعلون لله حسابا فى تقديرهم وتصريفهم للأمر ، فيقول لهم :

« إن المؤمن أكرم على الله من أن يجعل رزقه من حيث يحتسب ، يطمع المؤمن فى موضع فيمنع من ذلك ويأتيه من حيث لا يحتسب »^(١) .

« إن الله تعالى خلق الخلق ولم يجحبهم عنه ، وإنما جاءهم الحجاب من تديبرهم واختيارهم مع الله تعالى ، وذلك هو الذى كدر على الخلق عيشهم » .

ويتهى سهل من مشكلة الاكتساب بقوله : « من طعن على لاكتساب ، فقد طعن على السنة » .

وذلك أن رسول الله ، ﷺ ، كان يحث دائما على العمل والكسب ، يقول ﷺ : « لأن يأخذ أحدكم حبله ثم يأتى الجبل فيأتى بحزمة من تطب على ظهره فيبيعهها فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل ناس أعطوه أو منعه » رواه البخارى .

وعن المقداد بن معد يكرب ، رضى الله عنه ، عن النبى ، ﷺ ،
:

(١) حلية الأولياء .

« ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يديه ، وإن نبي الله داود عليه السلام ، كان يأكل من عمل يده » رواه البخارى .
وقال ﷺ :

« ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان إلا كان له به صدقة » رواه البخارى ومسلم والترمذى .
وينتهى سهل أيضا بأن :

« من طعن على التوكل ، فقد طعن على الإيمان » وذلك أن الله ، سبحانه وتعالى ، يقول :

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، إن الله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شىء قدراً﴾^(١) .

ويقول سبحانه : ﴿وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾^(٢) .

ويقول الرسول ﷺ :

« لو توكلتم على الله حق التوكل ، لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خصاصاً وتروح بطناً » من طعن على السنة ، ومن طعن على التوكل . فقد طعن على الإيمان .

ولابد إذن من تنسيق ينسجم فيه الاكتساب مع التوكل .

(١) سورة الطلاق : الآيات ٢ ، ٣ .

(٢) التوبة : ٥١ .

ولا بد من الاكتساب ولا بد من تفويض الأمر فى النتيجة لله ، سبحانه وتعالى ولا بد من العمل المتقن ، ولا بد من ذلك من أن يكمل الإنسان أمر اجتناء الثمرة إلى الله ، سبحانه وتعالى .

ولا بد من أن يعقل الإنسان ناقته ، ثم يتوكل على الله فى أمر حفظها ، يقول ﷺ : « اعقلها وتوكل » .

فإذا ما تأتى التنسيق بين الاكتساب والتوكل ، هدأ المؤمن واستراحت نفسه وأجمل فى الطلب ورضى بما قسمه الله له ، وغمره نوع من السكينة ويسرت عليه أمور الحياة .

الاكتساب والتوكل : ذلك قانون الإيمان ، وقانون الصوفية وما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده ، وإن نبى الله داود كان يأكل من عمل يده وإبراهيم بن أدهم - إمام من أئمة الصوفية ، ومنازة من منارات التقوى - كان متوكلاً على الله ، وكان يعمل فيأكل من عمل يده .

وهنا تنهافت كل الاعتراضات - اعتراضات أهل الدنيا - التى تتصل بالكسب نفيًا لوجوده فى جو الصوفية ، أو التى تتصل بالتوكل تحريفًا لمعناه وذهابًا به إلى غير سبيله ، ومن الحق أن :

« من طعن على الاكتساب فقد طعن على السنة ، ومن طعن على التوكل فقد طعن على الإيمان .

« لقد اهتم سهل اهتمامًا كبيرًا بأكل الحلال ، وذلك لما لهذا الجانب من مكانة كبرى فى الاتجاه إلى الله سبحانه وتعالى ، وفى كسب الحلال .

ولبيان هذه المنزلة نذكر الحديثين التاليين عن رسول الله ﷺ :

روى ابن مردويه - بسنده - عن ابن عباس قال :

« تليت هذه الآية عند رسول الله ﷺ : ﴿يَأْيُهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي
الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً﴾^(١) فقام سعد بن أبي وقاص فقال : يا رسول الله ،
ادع الله أن يجعلني مستجاب الدعوة ، فقال :

يا سعد ، أظب مطعمك تكن مستجاب الدعوة ، والذي نفس محمد
بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين
يوماً ، وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به .

وروى أحمد ومسلم بسندهما عن أبي هريرة قال : قال رسول الله
ﷺ : « أيها الناس ، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً ، وإن الله أمر
المؤمنين بما أمر به المرسلين : ﴿يَأْيُهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا
صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾^(٢) .

وقال : ﴿يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾^(٣) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد
يديه إلى السماء : يارب يارب ، ومطعمه حرام ، ومشربه حرام .
وملبسه حرام ، وغذى بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك ..

ومن طريف ما يروى في ذلك عن سهل - وهي قصة لها مغزاه
العميق - أنه قال مرة : أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة على أوليا

(١) البقرة : الآية : ١٦٨ .

(٢) المؤمنون الآية : ٥١ .

(٣) البقرة : الآية : ١٧٢ .

زمانى « ، فبلغ ذلك أبا زكريا الساجى وأبا عبد الله الزبيرى ، فذهبا إليه ، فقال له أبو عبد الله الزبيرى - وكان جسورا لأنه ضير : بلغنا عنك أنك تقول : أنا حجة الله على الخلق ، وأنا حجة الله على أولياء زمانى « ، فماذا صرت ؟ هل أنت نبي أو صديق ؟

فقال سهل : لم أذهب حيث ظننت ، ولست أنا نبياً ، إنما قلت هذا لأننى صححت أكل الحلال دون غيرى .. فقال له : وأنت صححت الحلال قال : نعم ، لا آكل دائماً إلا حلالاً فقال له الزبيرى : وكيف ذلك ؟

فقال له سهل : قسمت عقلى ومعرفتى وقوتى على سبعة أجزاء ، فأترك الأكل حتى يذهب منها ستة أجزاء ويبقى جزء واحد ، فإذا خفت أن يذهب ذلك الجزء وتلف معه نفسى أكلت بقدر البلغة خوفاً أن أكون أعنت على نفسى ، ولترد على الستة الأخرى ، فبهذا صح الحلال ..

فقال الزبيرى : نحن لا نقدر على المداومة على هذا ، ولا نعرف أن نقسم عقولنا ومعرفتنا وقوتنا على سبعة أجزاء ، واعترف بفضل سهل رضى الله عنه .

الفضل الثماني الطريق في جو القدوة والتأسي

ونريد الآن - بتوفيق الله - أن نتدرج في الطريق : سائرين مع أجوائه المتترقية ، ومع منازلها المتسامية ، حتى نصل مع « سهل » إلى تصوير الغاية التي يهدف إليها الذاهبون إلى الله ، على الأسلوب الذي سلكه سهل ورسمه ، وعلى الطريقة التي سار عليها وتقرب إلى الله بها .

والسؤال الذي يدور على الألسنة دائما هو :

ما مدى صلة الطريق بالسنة النبوية ، بسلوك رسول الله ﷺ ؟ إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾^(١) .

فما هو موقف سهل من هذه الأسوة ؟ وما هو مدى التزامه ؟

إن اتباع الهوى هو سبيل المنحرفين .

يقول سهل :

« كل عبد يفعل طاعة أو يتخلى عن معصية بغير اقتداء فهو عيش النفس » أي حظها وهواها ، إنه وقد تخلى عن الاتباع إيجابا أو سلبا ليس إلا هوى .

(١) الأحزاب : ٢١ .

يقول الله تعالى :

﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ، أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ۗ أَمْ تَحْسَبُ أَنْ أَكْثَرُهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾^(١) .

أما سبيل المؤمنين فإنه الاتباع .

يقول سهل :

« أيما عبد قام بشيء مما أمر الله به من أمر دينه ، فعمل به ، وتمسك به ، فاجتنب ما نهى الله ، تعالى عنه عند فساد الأمور ، وعند تشويش الزمان ، واختلاف الناس في الرأي ، والتفرق ... إلا جعله الله إمامًا يقتدى به ، هاديًا مهديًا ، قد أقام الدين في زمانه ، وأقام الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر .

وهو الغريب في زمانه ، الذي قال رسول الله ﷺ عنه :

« بدأ الإسلام غريبًا وسيعود كما بدأ » .

وما من عبد دخل في شيء من السنة ، وكانت نيته متقدمة في خوله الله ، إلا خرج الجهل من سره ، شاء أو أبى ، بتقدمه لنية .

ولا يعرف الجهل إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم « (إن الاتباع لم ، وعدم الاتباع جهل ، إنه جهل مهما بلغ صاحبه من الثقافة ، ذلك أن كل رأى في عالم الأخلاق لا تأسى فيه إنما هو رأى ظنى ،

(١) الفرقان : ٤٣ - ٤٤ .

وهو رأى تسهل معارضته برأى آخر ، ويسهل نقضه برأى ثالث ،
إنه إذن جهل حيث لا يقين فيه ، قال الله تعالى) :

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحكّموكَ فيما شجرَ بينهم ، ثم
لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾ (١) .

وما من شك في أن الفوضى الأخلاقية التي نعيش فيها ، والانحراف
في الشباب وفي الشيوخ الذي تعاني منه المجتمعات المعاصرة :
إنما مرجعه إلى المحاولات الآثمة التي يدعو إليها الملاحدة من فصل
الأخلاق عن الدين ، وإذا ما فصلت الأخلاق عن الدين : فإنها تتعرض
لآفات كثيرة منها :

١ - أنها تفقد قدسيّتها حيث يصبح منبعها بشرياً لا إلهياً ، وحيث
تصبح بذلك رأياً لا عقيدة .

٢ - تصبح جدلاً : ينكرها جملة من ينكرها : ينكره
السوفسطائيون ، وينكرها نيتشه ، وينكرها الوجوديون ، ولا يرى
هؤلاء ، ولا أولئك للفضيلة معنى ثابتاً ولا للخير مبادئ حقيقية .

٣ - تصبح نسبية : تتقلب مع أهواء الفرد ، ومع نزوات المنحرفين
ومع شهوات المبطلين .

وينتج عن ذلك كله : اضطراب المجتمع ، وفساد الجماعة ، لا يأه
الناس على دمائهم ولا على أموالهم ولا على أعراضهم .

(١) النساء آية : ٦٥ .

ومن أجل ذلك كان الناسي علمًا ، وكان حكمة أيضًا : حكمة بالنسبة للفرد : يأمن ويهدأ ، وحكمة بالنسبة للمجتمع : يستقر ويرقى .

وأما عدم الناسي فإنه جهل ، وإنه لسفه أيضًا :

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ۝ ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث ، أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾^(١) .

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾^(٢) .

« واتباع السنن الديني : ذلك هو طريق الهداية ، قال الله تعالى : ﴿واتبعوه لعلكم تهتدون﴾^(٣) وكلمة سهل عن أصول الطريق مشهورة معروفة ، إنه يقول : أصولنا سبعة أشياء :

التمسك بكتاب الله تعالى ، والافتداء بسنة رسول الله ﷺ ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ، وأداء الحقوق ، ويتحدث سهل في تفسيره عن الافتداء برسول الله ﷺ فيقول في قوله تعالى : ﴿وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا﴾^(٤) .

(١) الأعراف آية : ١٧٥ ، ١٧٦ .

(٢) النساء آية : ٦٥ .

(٣) الأعراف : ١٥٨ .

(٤) الحشر : ٧ .

قال : « أصول مذهبنا ثلاث » :

أكل الحلال ، والافتداء بالرسول ﷺ في الأخلاق والأفعال ، وإخلاص النية في جميع الأعمال ، وقال : ألزموا أنفسكم ثلاثة أشياء ، فإن خير الدنيا والآخرة فيها : صحبتها بالأمر والنهي بالسنة ، وإقامة التوحيد فيها وهو اليقين ، وعلماً فيه اتصال الروح .

وصاحب هذه الثلاثة أعلم بما في بطن الأرض مما على ظهرها ، ونظره في الآخرة أكثر من نظره في الدنيا ، وهو في السموات أشهر بين الملائكة منه في الأرض بين أهله وقربته ، فقليل : ما العلم الذي فيه إيصال الروح ؟

قال : « علم قيام الله عليه والرضا » .

﴿فمن أتبع هداى فلا يضل ولا يشقى﴾^(١) .

قال : « هو الافتداء وملازمة الكتاب والسنة ، فلا يضل عن طريق الهدى ، ولا يشقى في الآخرة والأولى » انتهى

وقال : « من لم يكن اقتداؤه في جميع أموره بالنبي ﷺ فهو ضال »

﴿إن الله يُدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات﴾^(٢) .

قال : « هم الذين صدقوا الله في السر والعلانية ، واتبعوا سنة نبيهم ﷺ ، ولم يتدعوا بحال » .

﴿هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم﴾^(٣) .

(١) طه ١٢٣ .

(٢) الحج : ١٤ .

(٣) الجمعة ٢ .

قال : « الأميون هم الذين صدقوا محمداً ﷺ ، نسبوا إليه لاتباعهم إياه واقتدائهم به ، ومن لم يقتد به فليس من أمته » .

يقول سهل :

« لا معين إلا الله ، ولا دليل إلا رسول الله ، ولا زاد إلا التقوى ، ولا عمل إلا الصبر » .

ومن أجمل ما كتبه سهل في الاتباع قوله بمناسبة قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾^(١) قال : حسن العمل الاستقامة عليه بالسنة ، وإنما مثل السنة في الدنيا مثل الجنة في الآخرة ، ومن دخل الجنة سلم ، كذلك من لزم السنة في الدنيا سلم من الآفات .

وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لو أن رجلاً ارتكب جميع الكبائر ثم لم يكن فيه شيء من هذه الأهواء والبدع لرجوت له ، ثم قال : من مات على السنة فليشر ثلاث مرات .

وقال سهل : لا يرفع الحجاب عن العبد حتى يدفن نفسه في الثرى ، قيل له : كيف يدفن نفسه ؟ قال : يميتها على السنة ، ويدفنها في اتباع السنة ، لأن لكل شيء من مقامات العابدين مثل الخوف والرجاء والحب والشوق والزهد والرضى والتوكل غاية إلا السنة فإنه ليست لها غاية ونهاية ...

فستل عن معنى قوله : ليت للسنة غاية ، فقال : لا يكون لأحد مثل خوف النبي ﷺ أو حبه أو شوقه أو زهده أو رضاه أو توكله وأخلاقه ، وقد قال الله تعالى :

(١) الكهف : ٣٠ .

﴿وانك لعلی خلق عظیم﴾^(١) .

ويقول في تفسير قوله تعالى : ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾^(٢) :
أى يزيد الله الذين اهتدوا بصيرة في إيمانهم بالله وفي اقتدائهم بمحمد
ﷺ وهو زيادة الهدى والنور المبين .

ويقول في تفسير قوله سبحانه :

﴿فلما آسفونا انتقمنا منهم﴾^(٣) .

أى فلما عايطونا بالإقامة على المخالفة في الأوامر وإظهار البدع في
الدين وترك السنن ، اتباعاً لوجود الأهواء ، نزعنا نور المعرفة من قلوبهم
وسراج التوحيد من أسرارهم ، ووكلناهم إلى أنفسهم ، وما اختاروه
فضلوا وأضلوا ، ثم قال :

« الاتباع الاتباع ، الاقتداء ، فإنه سبيل السلف ، ما ضل من اتبع ،
وما نجا من ابتدع » .

ويقول في تفسيره لقول الله تعالى : ﴿يأيتها الذين آمنوا قوا أنفسكم
وأهليكم ناراً﴾^(٤) .

« يعنى بطاعة الله واتباع السنن » .

ومما لا شك فيه أن سهلاً كان متمثلاً - فى ذلك - لما روى عن
رسول الله ﷺ :

(١) القلم الآية : ٤ .

(٢) مريم الآية : ٧٦ .

(٣) الزخرف الآية : ٥٥ .

(٤) التحريم الآية : ٦ .

فمن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ :
 « من أكل طيبا ، وعمل فى سنة ، وأمن الناس بوائقه دخل الجنة » .
 قالوا : يا رسول الله ، إن هذا فى أمتك اليوم كثير ..
 قال : « وسيكون فى قوم بعدى »^(١) .

وعن ابن عباس أن رسول الله ﷺ خطب الناس فى حجة الوداع
 فقال :

« إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم ، ولكن رضى أن يطاع
 فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم ، فاحذروا ، .. إني قد تركت
 فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً : كتاب الله وسنة نبيه »^(٢) .
 وعن مجاهد قال :

كنا مع ابن عمر - رحمه الله - فى سفر ، فمر بمكان فحاد عنه ،
 فسئل : لم فعلت ذلك ؟ قال : رأيت رسول الله ﷺ فعل هذا
 ففعلت^(٣) ..

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان يأتى شجرة بين مكة والمدينة
 فيقبل تحتها ويخبر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك^(٤) .
 وعن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « من
 أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد »^(٥) .

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب الصمت وغيره . وحاكم واللفظ له وقال :
 صحيح الإسناد .

(٢) رواه الحاكم وقال صحيح الإسناد وله أصل فى الصحيح .

(٣) رواه أحمد والبخارى بإسناد جيد .

(٤) رواه البخارى بإسناد لا بأس به .

(٥) رواه البخارى ومسلم وابو داود .

وعن جابر رضى الله عنه قال :

« كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه كأنه منذر جيش ، يقول : صباحكم ومساءكم ، ويقول : بعثت أنا والساعة كهاتين - ويقرن بين إصبعيه - السبابة والوسطى - ويقول :

« أما بعد ، فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة .. ثم يقول :

أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالا فإلهه ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فألى وعلى »^(١) .

وعن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « ستة لعنتهم ولعنتهم الله وكل نبي مجاب : الزائد فى كتاب الله عز وجل ، والمكذب بقدر الله ، والمتسلط على أمتى بالجبروت ليدل من أعز الله ويعز من أذل الله ، والمستحل حرمة الله ، والمستحل من عترتى ما حرم الله ، والتارك للسنة »^(٢) .

وعن عمرو بن عوف رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « انى أخاف على أمتى من ثلاث : من زلة عالم ، ومن هوى متبع ، ومن حكم جائر »^(٣) .

(١) رواه مسلم وابن ماجه .

(٢) رواه الطبرانى فى الكبير وابن حبان فى صحيحه والحاكم وقال صحيح الإسناد ولا أعرف له علة ..

(٣) رواه البيهقي والطبرانى والترمذى .

الفضل الثالث الطريق في جوّه الأخلاقي

يقول رسول الله ، ﷺ :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » .

ولقد أوحى الله تعالى ، منذ أن كانت الأديان - الأخلاق الكريمة تتوالى على لسان رسله الأطهار ، وكان تمام هذه الأخلاق وكإلها إنما هو : رسولنا وإمامنا ، صلوات الله وسلامه عليه :

ولقد وصفه الله تعالى ، بقوله :

﴿وانك لعلى خلق عظيم﴾^(١) .

ووصفه ، سبحانه ، بالرفقة والرحمة :

وحدد ، سبحانه ، طابع الرسالة الإسلامية بأنه الرحمة : فقال سبحانه

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾^(٢) .

وقال ، صلوات الله وسلامه عليه :

« إنما أنا رحمة مهداة » .

وعلى أساس من عناية الإسلام بالأخلاق الكريمة قامت دعوة الصوفية إلى الأخلاق الفاضلة .

(١) القلم الآية : ٤ .

(٢) الأنبياء الآية : ١٠٧ .

ولقد حدد كثير منهم التصوف بأنه الأخلاق وقال سهل يحدد
التصوف :

« التصوف ليس رسماً ، ولا علماً ، ولكنه خلق :

لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة .

ولو كان علماً لحصل بالتعليم .

ولكنه تخلق بأخلاق الله .

ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم أو رسم . ولقد
ذكر الناس - عند سهل - الكرامات وأخذوا في الحديث عنها مكبرين
لها مشيدين بأمرها فقال سهل :

« وما الآيات ؟

وما الكرامات ؟ شيء ينقضى لوقته .

ولكن أكبر الكرامات ، أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاق نفسك
بخلق محمود ، ويحمل سهل على المعاصي حملة مستفيضة ، ويقدم
أمر الانتهاء عن المعاصي على عمل الطاعات .

يقول سهل :

« ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من اجتنب ما
نهى الله عنه صار حبيب الله ، وفي ذلك يقول الله تعالى :

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نَكْفُرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ
مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾^(١) .

(١) النساء آية ٣١ .

ولا يجتنب الآثام إلا صدِّق مقرب .
أما أعمال البر فإنه يعملها البر والفاجر .

وقال مرة أخرى : أعمال البر يعملها البر والفاجر ، ولا يجتنب المعاصى إلا صدِّق ، والمعصية الكبرى ، المعصية التى يراها الصوفية أقبح المعاصى ، المعصية التى تقف عقبة أمام كل تقدم فى طريق الله هى ما عبر عنها سهل بقوله : « ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب »^(١) ولقد قيل له مرة :

ما أغرب الأشياء ؟

فقال : « قلب عرف الله ثم عصاه »^(٢) .

وإذا أقام العبد على معصية : فإن جميع حسناته تكون ممزوجة بالهوى ، لا تخلص له حسناته ، وهو مقيم على سيئة واحدة ، ولا يتخلص عن هواه حتى يخرج من جميع ما يعرف من نفسه مما يكرمه الله تعالى .

ولقد صور الله تعالى - كما يذكر سهل - الطبايع المنحرفة ، ورسم طريق العلاج ؛ فطبع البهائم يصوره الله بقوله : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾^(٣) .

﴿ والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم ﴾^(٤) .

(١) الكواكب الدرية .
(٢) وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى : الشيطان سؤل لهم وأمل لهم ﴾ ٢٥ من سورة محمد .
(٣) الحجر : ٣ .
(٤) محمد : ١٢ .

وطبيعة أهل الدنيا : اللهو ، واللعب ، والزينة ، والتفاخر ،
والتكاثر : فكل حياتهم :

« لعب وهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر فى الأموال والأولاد
واستعبد الله هؤلاء وأولئك - ليخرجهم من طباعهم إلى طبائع تتسامى
- بالتسبيح والتقديس والتحميد والتكبير والشكر ، حتى يسلموا من
طبع الشياطين : اللهو واللعب ، ويقتربوا من طباع الملائكة ، يقول
تعالى : ﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ، ويسبحونه ،
وله يسجدون﴾^(١) .

ويقول سبحانه :

﴿وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته
ولا يَسْتَحْسِرُونَ ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾^(٢) .

ومن الناس من تكون طبيعته طبيعة السحرة ، طبيعة المكر والخديعة ،
ويقول الله عن هذه الطبيعة :

﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾^(٣) .

ويقول سبحانه :

﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾^(٤) .

(١) الأعراف : ٢٠٦ .

(٢) الأنبياء آية : ١٩ ، ٢٠ .

(٣) الأنفال آية : ٣٠ .

(٤) النساء آية : ١٤٢ .

ويصور الله العلاج بالنسبة لهؤلاء : لقد استعبدهم الله بالافتداء بالنبي ﷺ ، بالنصيحة ، والرحمة ، والصدق ، والإنصاف ، والاستعانة بالله ، والصبر على ذلك إلى الممات^(١) .

ومن الناس من طبيعته طبيعة الأبالسة ، وطبيعة الأبالسة : الإباء والاستكبار ، يقول الله سبحانه عن إبليس :

﴿إلا إبليس أبى واستكبر﴾^(٢) وعلاج الطبيعة الإبليسية : الدعاء ، والتضرع والاتجاء إلى الله ؛ لقد استعبدهم بذلك حتى يسلموا من طبع الأبالسة :

﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾^(٣) ؟

وأحب لهم الاعتصام بحبل الله : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾^(٤) .

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾^(٥) .

على أن شئنين يذهبان خوف الله من قلب العبد : الدعوى ، والمعصية وصاحب المعصية إذا خوفته واحتجبت عليه بالإيمان : ينقاد ويخضع ، ويقر بالخوف ، وصاحب الدعوى ، لا يقر بالحق ، ولا ينقاد للخوف البتة .

(١) حلية الأولياء .

(٢) البقرة : الآية : ٣٤ .

(٣) الفرقان آية : ٧٧ .

(٤) آل عمران آية : ١٠٣ .

(٥) آل عمران آية : ١٠١ .

ولا يوجد قلب أخلى من الخير ، ولا أقصى ولا أبعد من خوف الله ، من قلب المدعى^(١) .

على أنه من الواجب أن نتنبه إلى الجهل الدينى ، فإنه من الأسباب الكبرى فى المعاصى ، فإنه فى حقيقة الأمر إذا نظرنا إلى هؤلاء المؤثرين للدنيا المنغمسين فيها ، المرتكسين فى مساراتها ، فإننا نجد الجهل : يقول سهل : « أصل الدنيا الجهل » وفرعها الأكل ، والشرب ، والطيب ، والنساء ، والمال ، والتفاخر ، والتكاثر ، وثمرتها المعاصى . وعقوبة المعاصى الإصرار .

وثمرة الإصرار الغفلة .

وثمرة الغفلة الاجترار على الله .

يقول الله تعالى :

﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾^(٢) .

واستمر سهل يستفيض فى التحذير من المعاصى : منبهاً ، ومعرفاً ، ومبيناً ، ولقد آن لنا أن نتقل إلى الطاعات وبيانها على ما وضحه سهل فى أمرها :

إن الانغماس فى الدنيا والارتكاس فى موبقاتها شر :

« والدنيا كلها جهل إلا العلم فيها ، والعلم كله وبال إلا العمل به ، والعمل كله هباء منثور إلا الإخلاص فيه ، والإخلاص فيه : أنت منه على وجل حتى تعلم هل قبل أم لا »^(٣) .

(١) حلية الأولياء .

(٢) المطففين آية : ١٤ .

(٣) الحلية .

وينصح سهل من أراد الاتجاه إلى حياة الخير قائلاً :
« لا تفتش عن مساوئ الناس ورداءة أخلاقهم ، ولكن فتش وابحث
في أخلاق الإسلام : ما حالك فيه حتى تسلم ، ويعظم قدره في نفسك
وعندك ، وتجتهد في التلبس بتلك الأخلاق »^(١) .

فتش عن أخلاق الإسلام ، واجتهد في التلبس بها .
وأول ما ينبغي في ذلك : مخالفة الهوى ، ومخالفة الهوى - حسبما
يرى سهل - من أفضل ما عبد الله به .

مخالفة الهوى في سبيل الله ؛ وما كانت مخالفة النفس في يوم من
الأيام هدفاً في نفسها ، إنها - في الوضع الديني السليم - ليست
غاية ، وإنما هي وسيلة لتيسير سبيل الصراط المستقيم الاقتداء والاتباع
والتأسي برسول الله ﷺ ، إنها وسيلة تيسر الاستجابة إلى الله ورسوله .
وإذا ما أراد الإنسان السير على الطريق المستقيم فينبغي أن :

يطهر العلم من الجهل بالاتباع والتأسي .
ويطهر الذكر من النسيان بعدم الغفلة .

ويطهر الطاعة من المعصية^(٢) بالانقطاع عن الشهوات المنحرفة .
بل إن الخروج من الشهوات - حسبما يرى سهل - خروج من
الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ،
ومن الإصرار إلى التوبة .

(١) الكواكب الدرية والحلية .

(٢) الحلية .

وأول ما ينبغي للعبد أن يتخلق به ثلاثة أخلاق ، وفيها اكتساب للعقل :

احتمال المثونة ، والرفق فى كل شىء ، والحذر أن يميل فى الهوى ، أو مع الهوى ، أو إلى الهوى .

ثم لابد له من ثلاث أحوال أخر ، وفيها : اكتساب العلم العالى (أى العلم بالتوحيد) ، والحلم ، والتواضع .

ثم لابد له من ثلاثة أخر وفيها : اكتساب المعرفة ، وأخلاق أهلها : السكينة ، والوقار ، والصيانة والإنصاف . ولابد لإحكام التعبد من : الحياء ، وكف الأذى ، وبذل المعروف ، والنصيحة .

الفصل الرابع الطريق في جوار التوبة

لقد احتل موضوع التوبة من نفس سهل مكاناً كبيراً .
وكان سهل على حق في اهتمامه بموضوع التوبة : وذلك أن أول
خطوة يخطوها الإنسان في معراجه إلى الله تعالى إنما هي التوبة الصادقة .
ولقد حث الله سبحانه وتعالى عليها بشتى الأساليب ، وفتح سبحانه
أبوابها على مصاريعها .

لقد أمر بها سبحانه في القرآن الكريم :

﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾^(١) .

وحدث عليها في الأحاديث بأسلوب في غاية الجمال :

« يا عبادي ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً
فاستغفروني أغفر لكم » .

وحدث عليها رسول الله ﷺ في أساليب مؤثرة :

« إن الله ييسر يده بالليل ليتوب مسيء النهار .

وييسر يده بالنهار ليتوب مسيء الليل » .

ويقول صلوات الله عليه وسلامه :

(١) النور الآية : ٣١ .

« كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » .
أما من الناحية العملية الواقعية ، فإن رسول الله ﷺ كان يتوب إلى الله ويستغفره كثيراً .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :
« والله إنى لأستغفر الله وأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة »^(١) .
وعن الأغر المزنى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنه ليغان على قلبى ، وإنى لأستغفر الله فى اليوم مائة مرة »^(٢) .
ويقول رسول الله ﷺ - فيما رواه الأغر المزنى - :
« يأيها الناس توبوا إلى الله ، فإنى أتوب إليه فى اليوم مائة مرة »^(٣) .
ويقول سبحانه : ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾^(٤) .
والله سبحانه علق حبه على كثرة التوبة .

التوبة ولو لم يكن ذنب ، التوبة ولو لم تكن هفوة ، التوبة باعتبارها عبادة ، التوبة باعتبارها من الأبواب التى يدخل منها الإنسان إلى حب الله له .

وإذا أمعنا النظر فى موضوع التوبة نجد أنه تلازم الإنسان طيلة حياته ، وإذا كانت مقامات السالكين إلى الله يسلم بعضها إلى بعض ، ويرقى الإنسان فيها من مقام ينتهى منه إلى مقام يسير فيه إلى غايته

(١) رواه البخارى .
(٢) رواه مسلم .
(٣) رواه مسلم .
(٤) البقرة الآية : ٢٢٢ .

ليسلمه إلى مقام ثالث ؛ وهكذا ، فإن التوبة مقام أساسى يسلم إلى ما بعده ، ولكنه لا ينتهى ، وإنما يلزم الإنسان مهما ترقى فى معرجه إلى الله سبحانه ، ومن أجل ذلك كان الواقع فى حياة رسول الله ﷺ الاستمرار فى التوبة ، يومياً يتوب صلوات الله وسلامه عليه توبة عبادة ، توبة تضرع ، توبة انكسار إلى الله ، طلباً لمرضاته ، توبة تواضع وخشية ، توبة يدخل بها إلى حب الله سبحانه له ، التوبة إنها شعار كل صادق فى اتجاهه إلى الله .

وإذا كانت لم تأخذ حظها من الاهتمام عند بعض الناس فإنها ملكت على سهل شعوره ووجدانه ، وبلغ من أهميتها عنده أن أعلن أن :
« التوبة فرض على العبد فى كل نفس » .

والواقع أنه إذا سار الإنسان فى جو من الفهم الذى يتسم بسعة الأفق بعيداً عن قيود الألفاظ فإنه يستطيع أن يفهم من هذه الجملة أن المقصود بها أن يستمر الإنسان « متذكراً » لله سبحانه فى جميع لحظاته وتكون على هذا الوضع « التوبة ذكر » .

وما هو الذكر إذا لم يكن تضرعاً إلى الله ومراعاة لحدوده أمراً ونهياً ؟ وما هى التوبة إذا لم تكن ذكر الله ومراعاة له فى الحركات والسكنات ؟

والله سبحانه وتعالى يتحدث عن أولى الأبواب فيذكر من صفاتهم أنهم : ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾^(١) .

(١) آل عمران الآية : ١٩١ .

أى فى كل أحوالهم ، أو ... فى كل أنفاسهم .
إنه إذا حسنت النية ، أمكن أخذ الأمور من جانب رحابة الصدر ،
وسعة الأفق .

ولكن هذه الكلمة الجميلة من سهل « التوبة فرض على العبد فى كل نفس » أقامت عليه الدنيا وأقعدتها ؛ وما كان ذلك عن إخلاص ،
كلا ، وإنما عن حسد ؛ يقول صاحب الكواكب الدرية :
« وأكثر فى الأرض من علوم الحقائق فحسده فقهاء بلده ، فنسبوه
إلى عظامم بسبب قوله :

« التوبة فرض على العبد فى كل نفس » .

ولم يزالوا به حتى أخرجوه وجماعته من البلد إلى البصرة فمات
بها .

وتقول دائرة المعارف الإسلامية :

« ولا نعرف من حياة سهل التى كانت تتسم ، فيما يظهر بالهدوء
واعترال الناس ، إلا حادثة واحدة هى نفيه إلى البصرة ، إبان فتنة الزنج
(حوالى سنة ٢٦١ هـ - ٨٧٤ م) حين أنكر علماء الأهواز قوله
بأن التوبة فرض .

أمّا رأى سهل فى التوبة فى صورة واضحة فيتين من النصوص
التالية التى تحدث فيها سهل عن التوبة :

قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا ﴾ (١) .
قال : التوبة النصوح ألا يرجع ، لأنه صار من جملة الأجابة ، والحبُّ
لا يدخل في شيء لا يحبه الحبيب .

وقال : علامة التائب أن لا تقله أرض ولا تظله سماء إلا هو متعلق
بالعرش وصاحب العرش ، حتى يفارق الدنيا ، ولا أعرف في هذا
الزمان أقل من التوبة ، إذ ليس منا أحد أتاه ملك الموت إلا ويقول :
دعني أفعل كذا وكذا ، دعني أتففس ساعة ، ثم قال : إن التائب
المخلص ، [تاج] ولو (كانت توبته) مقادر ساعة ولو مقدار نفس
واحدة قبل موته .

وقال سهل : ليس شيء في الدنيا من الحقوق أوجب غلياً للخلق
من التوبة ، فهي واجبة في كل لحظة ، ولا عقوبة عليهم أشد
من فقد علم التوبة ، فقيل : ما التوبة ؟ فقال : أن لا تنسى ذنبك .

وقال : أول ما يؤمر به المبتدئ التحول من الحركات المذمومة إلى
الحركات المحمودة ، وهي التوبة ، ولا تصح له التوبة حتى يلزم نفسه
الصمت ، ولا يصح له الصمت حتى يلزم نفسه الخلوة ، ولا تصح
له الخلوة إلا بأكل الحلال ، ولا يصح له أكل الحلال إلا بأداء حق
الله تعالى ، ولا يصح له أداء الحق إلا بحفظ الجوارح والقلب ، ولا يصح
له ما وصفنا حتى يستعين بالله عز وجل على جميعه .

(١) التحريم الآية : ٨ .

فقيل : ما علامة صدق التوبة ؟ قال : علامتها أن يدع ما له فضلاً عما ليس له .

وسئل سهل عن الرجل يتوب ويقلع من ذلك الذنب ثم يخطر ذلك بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوة ذلك الذنب السيئ ، كيف الحيلة فيه ؟ فقال : وجدان الحلاوة من الطبع لا يتحول فيصير المحبوب مكروهاً ، ولكن يقهر عزم القلب فيرجع في ذلك إلى الله عز وجل ، ويرفع إليه شكواه ، ويلزم نفسه وقلبه الإنكار ولا يفارقه ، فإنه إن غفل عن الإنكار طرفة عين تخوفت عليه أن لا يسلم منه ، قال : دعوا القال والقييل كله في هذا الزمان ، عليكم بثلاث : « توبوا إلى الله عز وجل مما تعرفونه بينكم وبينه ، وأدوا مظالم العباد التي قبلكم فإذا أصبحتم فلا تحدثوا أنفسكم بالمساء ، وإذا أمسيتم فلا تحدثوا أنفسكم بالصباح ، لأن الأحداث قد كثرت والخطر عظيم » ، فاتقوا الله وألزموا أنفسكم التوبة ، وقال : التائب يتقى المعصية ويلزم الطاعة ، والمطيع يتقى الرياء ، ويلزم الذكر ، والذاكر يتقى العجب ويلزم نفسه التقصير .

قيل : ما التوبة ؟ قال أن تبدل بدل الجهل العلم ، وبدل النسيان الذكر ، وبدل المعصية الطاعة ، والتوبة مداومة الاستغفار من تقصيره فيها .

قال سهل : ما عصى الله تعالى أحد إلا بجهل ، ورب جهل أورث علماً ، والعلم مفتاح التوبة ، والإصلاح صحة التوبة ، من لم يصلح

توبته فعن قريب تفسد توبته لأن الله تعالى يقول : ﴿ ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا ﴾ (١) .

وقال : « لا تصح التوبة لأحدكم حتى يدع الكثير من المباح مخافة أن يخرج به إلى غيره ، كما قالت عائشة رضی الله عنها :

اجعلوا بينكم وبين الحرام سترًا من الحلال ، كان رسول الله ﷺ يدعنا بعد الطهر ثلاثا حتى تذهب فورة الدم » .

وقال : « التائب من يتوب عن غفلته في كل لحظة » .

ويقول : « ما من عبد أذنب ذنبًا ولم يتب إلا جره ذلك الذنب إلى ذنب آخر ، وأنساه الذنب الأول ؛ وما من عبد عمل حسنة إلا جرت به تلك الحسنة إلى حسنة أخرى وبصره عقله تقصيره في الحسنة الأولى ، لكي يتوب من تقصيره في حسناته الماضية ، وإن كانت خالية صحيحة » .

(١) النحل الآية : ١١٩ .

الفضل المختص الطريق في جوّ الإخلاص

تحتل فضيلة الإخلاص في الإسلام مكانة كبيرة : إنها من الأسس الأصيلة في قبول الأعمال مع الإيمان ، واتباع السنة ، ولن يقبل الله الأعمال ما لم تكن خالصة لوجهه .

ولقد وردت في ذلك آيات كثيرة ، وأحاديث عدة ، فمن الآيات قوله تعالى :

﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾^(١) .

فما لم يكن خالصاً فليس لله فيه نصيب ، أى لا يتقبله سبحانه ، ولا يثيب عليه ، وهو مردود في وجه صاحبه .

ويقول الله تعالى في حديث قدسى :

« أنا خير شريك ، من عمل لى عملاً وأشرك فيه غيرى ، تركته لغيرى » .

ويقول رسول الله ﷺ :

« من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة : فارقها والله عنه راض » .

(١) الزمر الآية : ٣ .

وما من شك أن بين معنى كلمة « الإسلام » وكلمة « الإخلاص » صلة لا تنفصم ، فالإسلام هو أن يسلم الإنسان قلبه لله ؛ إنه إسلام الذات - ممثلة في القلب - لله وحده لا شريك له .

ولقد سئل رسول الله ﷺ ما هو ؟

فقال : « أن يسلم لله قلبك ، وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك » .

وهذا هو الإخلاص ؛ بل لقد سئل رسول الله ﷺ ، عن الإيمان ما هو ؟ فقال : الإخلاص .

ول هذه الأهمية لمعنى الإخلاص في الإسلام ، اهتم به الصوفية اهتماماً كبيراً ؛ وقد احتل في تفكير سهل مكانة تتناسب مع أهميته ؛ يقول سهل :

« نظر الأكياس في الإخلاص فلم يجدوا شيئاً غير هذا ، وهو أن تكون حركاته وسكناته في سره وعلانيته لله عز وجل وحده لا يمازجه موى ولا نفس » .

وإذا سألت سهلاً عن الإخلاص ما هو ؟

قال : الإجابة ، فمن لم تكن له الإجابة فلا إخلاص له .

وقال : الإخلاص على ثلاث معان :

إخلاص العبادة لله ، وإخلاص العمل له ، وإخلاص القلب له « .
وليس أمر الإخلاص هيئاً سهلاً ، فيما يرى سهل ، فلقد سئل :

أى شىء أشد على النفس ؟

فقال : الإخلاص .

قيل : ولم ذلك ؟

فقال : « لأنه ليس للنفس فيه نصيب » .

وقد ينتفى الإخلاص عن الفروض نفسها ، بل عن الإيمان ؛ ولقد
سئل سهل عن ذلك :

هل يدخل الفرائض رياء ؟

فقال : نعم ، قد دخل الإيمان الذى هو أصل الفرائض حتى أبطله ،
وصار نفاقاً ، فكيف العمل ؟ فكل من لم يعب أحد عليه فى ظاهره ،
ويعلم الله خلافه من سره فى أى حال كان ، فهو المرائى الذى لا شك
فيه » .

ويحذر سهل كل التحذير من الرياء الذى به ينتفى الإخلاص ،
وكثيراً ما تحدث عن الرياء ، ومن ذلك ما يقوله بمناسبة تفسيره
لقوله تعالى :

﴿الذين هم يراؤون﴾^(١) قال :

هو الشرك الخفى ، لأن المنافقين كانوا يحسنون الصلاة فى المساجد
فإذا غابوا عن أعين المسلمين تكاسلوا عنها ؛ ألا ترى كيف أثبتهم
أولاً مصلين ، ثم أوعدهم بالوعيد ؟

(١) الماعون الآية : ٦ .

واعلموا أن الشرك شركان : شرك في ذات الله عز وجل ، وشرك في معاملته ، فالشرك في ذاته غير مغفور ، وأما الشرك في معاملته قال :

نحو أن يحج ، ويصلى ، ويعلم الناس ، فيثنون عليه ، وهذا هو الشرك الخفى ، وفي الخبر :

« أخلصوا أعمالكم لله ، فإن الله لا يقبل من العمل إلا ما خلص ، ولا تقولوا هذا لله وللرحم إذا وصلتموه ، فإنه للرحم وليس منه شيء لله » .

وقد قال النبي ﷺ لمعاذ حين قال له : أوصني يا رسول الله ؟ قال : « أخلص لله يكفيك القليل من العمل » ، ولقد تحدث عن حيل الشيطان ليفسد على الإنسان إخلاصه ، وذلك بمناسبة قوله تعالى : ﴿من شر الوسواس الخناس﴾^(١) قال سهل :

ما الوسوسة ؟ فقال :

كل شيء دون الله تعالى فهو وسوسة ، وإن القلب إذا كان مع الله تعالى فهو قائل عن الله تعالى ، وإذا كان مع غيره فهو قائل مع غيره ، ثم قال :

من أراد الدنيا لم ينج من الوسوسة ، ومقام الوسوسة من العبد مقام النفس الأمارة بالسوء ، وهو ذكر الطبع ؛ فوسوسة العدو في الصدور كما قال :

(١) الناس الآية : ٤ .

﴿يوسوس في صدور الناس ، من الجنة والناس﴾^(١) .

يعنى فى صدور الجن والإنس جميعاً ، ووسوسة النفس فى القلب ، قال الله تعالى : ﴿ونعلم ما توسوس به نفسه ، ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾^(٢) .

وإن معرفة النفس أخفى من معرفة العدو ، ومعرفة العدو أجلى من معرفة الدنيا ، وأسرُّ العدو معرفته ، فإذا عرفته فقد أسرته ، وإن لم تعرف أنه العدو أسرك ، فإنما مثل العبد ، والعدو ، والدنيا ، كمثل الصياد والطير والحبوب ، فالصياد إبليس ، والطير العبد ، والحبوب الدنيا ، وما من نظرة إلا وللشيطان فيها مطمع ، فإن كنت صائماً فأردت أن تفطر قال لك :

ما يقول الناس ؟ أنت قد عرفت بالصوم ، تركت الصيام .

فإن قلت : مالى وللناس ؟ قال لك :

صدقت أفطر ، فإنهم سيضعون أمرك على الحسبة والإخلاص فى فطرك .

وإن كنت عرفت بالعزلة ، فخرجت .

قال : ما يقول الناس : تركت العزلة .

فإن قلت : مالى وللناس ؟

قال : صدقت ، اخرج فإنهم سيضعون أمرك على الإخلاص والحسبة .

(١) الناس الآيتان : ٥ ، ٦ .

(٢) ق الآية : ١٦ .

وكذلك فى كل شىء من أمرك ىردك إلى الناس حتى كأنه لىأمرك بالتواضع للشهرة عند الناس .

ولقد حكى أن رجلاً من العباد كان لا يغضب ، فأتاه الشيطان وقال : إنك إن تغضب وتصبر كان أعظم لأجرك ، ففطن به العابد ، قال : وكيف ىجىء الغضب ؟ قال :

آتىك بشىء فأقول لمن هو ، فقل هولى ، فأقول : بل هولى ، فأتاه بشىء .

وقال العابد : هولى .

فقال الشيطان : لا بل هولى .

فقال العابد : إن كان لك فاذهب به ، ولم يغضب .

فرجع الشيطان خائباً حزيناً ، أراد أن يشغل قلبه حتى يصيب منه حاجته ، فعرفه واتقى غروره .

ثم قال سهل : « عليك بالإخلاص تسلم من الوسوسة » اهـ .

ونتین من النصین الآتین مدى تقدير الإخلاص فى رأس سهل .

سئل عن خیر العبادات فقال :

« الإخلاص ، لقوله : ﴿وما أمروا إلا لىعبدوا الله مخلصین له للدين﴾^(١) .

(١) البینة : ٥ .

ويقول : « أفضل الطهارة أن يُطهَّر العبد من حوله وقوته ، وكل فعل أو قول لا يقارنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا يتولاه الله عز وجل ، وكل قول لا يقارنه استثناء عوقب عليه ، وإن كان برًّا ، وكل مصيبة لا يقارنها استرجاع لم يثب عليها صاحبها يوم القيامة » اهـ .

ويعد : فإن الحديث الشريف الذى ابتدأ به الإمام البخارى كتابه العظيم : « الصحيح » يقول عنه بعض علمائنا : إنه ربع الإسلام ، وهو :

« إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

وإذا كان الإخلاص يتبدئ بالنية فإنه - فى الجو الإسلامى - يصاحب جميع الأعمال .

وإن من أعظم البراهين على صدق الإسلام ، وعلى صدق الرسول ﷺ ، هو هذه الأهمية الكبرى لفضيلة الإخلاص .

الفصل السادس الطريق في جوّ المعراج

اتخذ الصوفية الاقتداء برسول الله ﷺ شعاراً لهم ، ولهذا الاقتداء كانوا صفوة أهل السنة ، ويذكر صاحب كتاب « التبصير في الدين » ما يمتاز به « أهل السنة » عن غيرهم من « الخوارج » و « الروافض » و « القدرية » ، فيذكر أن سادس ما امتاز به « أهل السنة » هو :

علم « التصوف والإشارات » ، وما لهم فيها من الدقائق والحقائق ، لم يكن قط لأحد من « أهل البدعة » فيه حظ ، بل كانوا محرومين مما فيه : من الراحة والحلاوة ، والسكينة والطمأنينة .

وقد ذكر « أبو عبد الرحمن السلمى » من مشايخهم قريباً من ألف وجمع إشاراتهم وأحاديثهم ، ولم يوجد في جملتهم قط من ينسب إلى شيء من بدع : القدرية ، والروافض ، والخوارج .

وكيف يتصور فيه من هؤلاء ، وكلامهم يدور على التسليم والتفويض ، والتبرى من النفس ، والتوحيد بالخلق والمشيئة .

وأهل البدع ينسبون الفعل والمشيئة ، والخلق والتقدير ، إلى أنفسهم ، وذلك بمعزل عما عليه أهل الحقائق من التسليم والتوحيد .

وإن الاقتداء برسول الله ﷺ أساس أصيل اليوم لمعراج المؤمنين إلى الله ، بل لا أساس غيره ، وذلك أن الكتاب الوحيد الصادق الآن للتدين ما هو القرآن الكريم .. إنه :

١ - بالأسلوب الإلهي : هذا الأسلوب الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأنه أسلوب هو تنزيل من لدن حكيم خبير عليم .

٢ - لم ينله تحريف ، فالقرآن الذى يتلوه المسلم الآن هو القرآن نفسه الذى كان يتلوه محمد ﷺ .

٣ - وهو لم ينله تحريف ولا تبديل ، لأن الله سبحانه ضمن حفظه : ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١) .

٤ - وليس فى العالم الآن - شرقه وغربه - نص مقدس بالأسلوب الإلهي ، وليس فى العالم الآن - شرقه وغربه - كتاب ديني إلا وقد ناله التحريف .

٥ - ومن أجل كل ذلك لا يتأتى الآن المعراج إلى الله إلا عن طريق الإسلام ، وعن طريق القدوة برسول الله ﷺ ، وكل ما يقال الآن عن صوفية فى الشرق أو فى الغرب عن غير طريق الإسلام إنما هو تهريج من التهريج ، وزيف من الزيف ..

* * *

والتصوف - طريقا وغاية - : هو معراج إلى الله .

كيف رسم سهل هذا الطريق فى مقاماته :

إنه يعرف التصوف هذا التعريف الجميل :

(١) الحجر الآية : ٩ .

التصوف ليس رسماً ولا علماً ، ولكنه خلق ، لأنه لو كان رسماً
لحصل بالمجاهدة ، ولو كان علماً لحصل بالتعليم ، ولكنه تخلق بأخلاق
الله ، ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الإلهية بعلم ورسم .

والإمام الغزالي يستفيض فى شرح هذه الفكرة من زاويتها العلمية
فيقول :

« ثم إنى لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتى على طريق الصوفية ،
وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل .

وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها
المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير
الله تعالى ، وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر على من العمل ؛ فابتدأت بتحصيل علمهم من
مطالعة كتبهم ، مثل قوت القلوب لأبى طالب المكي رحمه الله ، وكتب
الحارث المحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد »^(١) ..

(١) سيد هذه الطائفة وإمامهم ، أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق ، وأبوه
كان يبيع الزجاج فلذلك يقال له : القواريرى ، وكان فقيهاً على مذهب أبى ثور ،
وكان يقضى فى حلقته بحضوره وهو ابن عشرين سنة ، مات سنة سبع وتسعين ومائتين
٢٩٧ .

قال الروذبارى : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال : أهل المعرفة بالله
يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل ..
فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهو عندى عظيمة ، والذي
يسرق ويزنى أحسن حالاً من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال =

والشبل^(١) ، وأبى يزيد البسطامي^(٢) ، قدس الله أرواحهم ، وغير ذلك من كلام مشايخهم ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ، فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات .

= عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها ، ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بي دونها .
وقال الجنيد : الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقال : من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر ، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ..

وقال : مذهبا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة ، وعلمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ (عن الرسالة القشيرية) ..

(١) بغدادى المولد والنشا ، وأصله من (أسروشة) ، صحب الجنيد ومن فى عصره ، وكان شيخ وقته حالاً وظرفاً وعلماً ، مالكى المذهب ، عاش سبعاً وثمانين سنة ، ومات سنة أربع وثلاثين وثلثمائة ، وقبره ببغداد .

وكان الشبل إذا دخل رمضان جد فوق جد من عصره ويقول هذا شهر عظمه ربي فانا أول من يعظمه .

(٢) كان من كبار الزاهدين العابدين ؛ قيل : إنه مات سنة إحدى وستين ومائتين ، وقيل أربع وثلاثين ومائتين ..

وذهب مرة لزيارة رجل كان مقصوداً مشهوراً بالزهد ، فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصافة تجاه القبلة ، فانصرف أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال : هذا غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدعيه . ومن كلامه : لو نظرتم إلى رجل أعطى من الكرامات حتى يرتقى فى الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهى ، وحفظ الحدود الشرعية (انظر الرسالة القشيرية) .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة ، وحد الشيع ، وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحاً وشبعان ، وبين أن يعرف حد السكر وأنه : عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين أن يكون سكران ، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران ، وما معه من علمه شيء ، والصاحي يعرف حد السكر وأركانه ، وما معه من السكر شيء .

والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة .

كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها ، وأسبابها ، وبين أن يكون حالك الزهد ، وعزوف النفس عن الدنيا .

فعلت يقيناً أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال ، وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك .

إن التصوف ليس علماً نسبياً وليس بحثاً دراسياً ، وتلك حقيقة تبدو واضحة في هؤلاء الذين يكتبون كثيراً عن التصوف من المستشرقين ، من الباحثين الجامعيين الذين يدرسون التصوف من الخارج على شكل من الأشكال أو رسم من الرسوم .. كلاً ، إن التصوف س كذلك ، ولأنه شيء آخر فإن كل من كتبوا عنه على أنه شكل . أخطأهم التوفيق .. وإن ما كتبه المستشرقون عن التصوف إنما يعطى ورة لضلال الطريق إلى الحقيقة .

أما سهل رضى الله عنه فإنه يقسم طلاب الحق من مبدأ الأمر إلى :

١ - مردين .

٢ - مرادين .

ويذكر ذلك بمناسبة الآية الكريمة :

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾^(١) .

وكان من الممكن أن يذكر ذلك أيضاً بمناسبة الآية الكريمة :

﴿الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب﴾^(٢) ..

بل إن هذه الآية الأخيرة أصرح ..

يقول سهل عن الآية الأولى :

إن الله ميز بين المرید والمراد في هذه الآية وإن كان الجميع من عنده ، وإنما أراد أن يبين موضع الخصوص من العموم ، فخص المراد في هذه السورة وغيرها ، وذكر المرید وهو موضوع العموم في هذه السورة أيضاً ، وهو قوله تعالى :

﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾^(٣) .

فهو قصد العبد في حركاته وسكونه إليه ، كما قال :

﴿والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة﴾^(٤) .

(١) الأنعام : ١٢٥ .

(٢) الشورى : ١٣ .

(٣) الأنعام : ٥٢ .

(٤) الشورى : ٢٨ .

فكل من وجد حال المرید والمراد فهو من فضل الله عليه ، ألا ترى أنه جمع بينهما في قوله تعالى :

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾^(١) .

قيل له : فما الفصل بينهما ؟

فقال : المرید الذي يتكلف القصد إليه والعبادة لله تعالى ويطلب الطريق إليه ، فهو في الطلب بعد ..

والمراد : قيام الله تعالى له بها ، والرجل يجد في نفسه ما يدل على المرید والمراد يدخل في الطاعات وقتاً يجد ما يحمله على الأعمال من غير تكلف وجهد ، نظراً من الله تعالى له ، ثم يخرج بعد ذلك إلى علو المقامات ، ورفيع الدرجات ..

قيل له : ما معنى المقامات ؟

قال : هي موجودة في كتاب الله تعالى في قصة الملائكة :

﴿وما منا إلا له مقام معلوم﴾^(٢) وقال :

﴿ولكل درجات مما عملوا﴾^(٣) ..

وقال في صفة المرید :

« شغل المرید إقامة الفرض ، والاستغفار من الذنب ، وطلب السلامة من الخلق » .

(١) النحل : ٥٣ .

(٢) الصافات : ١٦٤ .

(٣) الأحقاف : ١٩ .

وقال سهل :

« إن الله عز وجل ينظر في القلوب والقلوب عنده ، فما كان أشدها تواضعا له خصه بما شاء ، ثم بعد ذلك ما كان أسرعها رجوعًا ، وهما هاتان الخصلتان .

وقال : ما اطلع الله على قلب فرأى فيه هم الدنيا إلا مقتته ، والمقت أن يتركه ونفسه .

وقال : القلب لا يملكه أحد إلا الله تعالى ، ولا يطيع أحدًا إلا الله ، فإذا ذكرت به فضع شرك مع الله ، فإنه ليس من أحد وضعت شرك عنده إلا هتكه إلا الله عز وجل . « .

ومن أوائل ما يبدأ به سهل الحديث عن مقتضيات كلمة التوحيد إذا قيلت بحق : إنه يقول :

فمن قال لا إله إلا الله فقد بايع الله ، فحرام عليه إذا بايعه أن يعصيه في شيء من أمره ونهيه ، في سره ، وعلانيته ، أو يوالى عدوه ، أو يعادى وليه .

ولكن الاستجابة لله ولرسوله يقف في طريقها حجب :

ويتحدث سهل مرة أخرى في بيان هذه الحجب ، فيقول :

إن الله حجب عقول الخلق بحجب لطيفة ، فحجب العلماء عنه بالعلم ، والزهاد بالعمل ، والحكماء بلطائف الحكمة ، أما العارفون فأسكن قلوبهم من نور معرفته فلم يحجبهم بشيء .

ويستفيض سهل مرة أخرى في بيان هذه الحجب فيقول :

الحجب السبعة التي تحجب الإنسان عن ربه عز وجل :
فالحجاب الأول : عقله ، والثاني : علمه ، والثالث : قلبه .
والرابع : خشيته ، والخامس : نفسه ، والسادس : إرادته . والسابع :
مشيئته .

فالعقل : باشتغاله بتدبير الدنيا ، والعلم : بمباهاته مع الأقران .
والقلب : بالغفلة . والخشية : بإغفالها عن موارد الأمور عليها .
والنفس : لأنها مأوى كل بلية ، والإرادة : إرادة الدنيا والإعراض عن
الآخرة . والمشئة : بملازمة الذنوب .

ويقول عن فتح القلب :

لا يفتح الله قلب عبد فيه ثلاثة أشياء : حب البقاء ، وحب الغنى ،
وهم غد ..

وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير من نفسه ؟

قال : إذا لم ير وقتا غير الوقت الذي هو فيه .

ومن الحجب أركان إبليس ، ولإبليس أركان سبعة ، يقول سهل :
لإبليس سبعة أركان في سبع مراتب ، بها ينال ولد آدم إلا من عصمه
الله :

أوله : ما لا يعنى ، ثم المعصية جملة ، ثم الإصرار عليها ، ثم
الغضب بالسرعة ، ثم الحقد إذا طال مكثه في القلب ، والاستخفاف .
وقلة أقدار الناس عنده ، فإذا بلغ - المرء - هذا فلا تسأل عما وراء
ذلك .

فلما سئل سهل عن قوله : لا يعنى ، قال :
من اشتغل بشيء لا يعنيه من أمر آخرته نال منه العدو حاجته ،
فكيف غيره ؟

ثم قال : « من تلفظ بلسانه شيئاً مما لا يعنيه لم يوفق للصواب فيما
يعنيه » .

وكل من خاض فى الباطل لم يقم بالحق إذا لزمه أو نزل به ، وكذا
حكم الله .

إن أهل الباطل لا يوفقون للرشد والحق ، تدخل الأشياء على الفارغ ،
فأما المشغول فهو فى مزيد .

ثم قال سهل :

أحسنوا جوار نعم الله عليكم ، فإنها مازالت عن قوم فكادت ترجع
إليهم ، ولا يطلع على عثرات الخلق إلا معطل جاهل ، ولا يهتك ستر
ما أطلع عليه إلا ملعون .

ومن هذا الوادى ما يقول سهل : ما نظر واحد إلى نفسه فأفلح ،
ولا أدعى لنفسه حالاً فتم له ، والسعيد من صرف نفسه عن أفعاله
وأقواله ، وفتح له سبيل الفضل والإفضال ، ورؤية منة الله عليه فى
جميع الأفعال .

ولكن مهما تعددت الحجب فإنه - كما يقول سهل - ليس بين
العبد وربه حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق أقرب إلى الله من
الدلة والانكسار .

وسهل يتحدث أكثر من مرة عن الدعوى وعن المدعين ، ويبدو أن سهلاً ضاق به نفساً فأخذ ينفس عن ضيقه في هذه الكلمات القوية عن المدعين ، وهو على حق في كل ما كتبه عن هذه الفئة التي أضرت بالإخلاص وبالخلق في كل زمن ، ومن ذلك ما يقول :

أدنى الدعوى أن يلزمه اليوم حق من حقوق الله : إما ذنب يتوب منه أو ير ، فيقول : غداً أعمل ، ولا يكون المدعى خائفاً أبداً ، ومن لم يكن خائفاً - أى يخاف الله - لا يكون أمناً ، ومن لم يكن أمناً لم يطلع على الخزانة ، وما من أحد ادعى إلا وقد ضيع حقوق الله من وجهين :

وجه من الظاهر ، ووجه من الباطن .

وقال : المذنب بإقراره بالذنب يسأل العفو فهو مطيع ، والمدعى للطاعة هو عاص لأنه يحكم لنفسه ما لم يحكم الله عز وجل له .
وهناك شيان يذهبان خوف الله من قلب العبد أصلاً : الدعوى والمعصية ، وصاحب الدعوى لا يقر بالحق .

وقال : لا أعرف في الدنيا قوماً أروح أبداناً من الذين يدعون هذا الطريق - طريق التصوف - هم في روح وسرور ، لأنهم اسقطوا عن أنفسهم العبودية واستراحوا ، فلا ضرباً يضربون ، ولا محرك يحركهم .
هم أشد من الزنادقة ، لأن الزنديق تضربه وتحركه ، وهم يتكلمون في وجدان القلوب ويتلذذون به ويكذبون ، ويغتابون ، ويفجرون ولا يبالون ، فضلوا وأضلوا .

وقال : حكم المدعى أنه تصحبه هذه الثلاثة الخصال :
تصحبه التزكية لنفسه وقد نهى عن ذلك ، وجهله بنعم الله عليه ،
وجهله بحاله .

وقال : أصل الهلاك الدعوى ، وأصل الخير الافتقار .

التقوى

ولا مخلص من كل ذلك إلا بالتقوى .

ويعلن سهل فى صراحة أنه :

« لا تصلح التقوى إلا للمقتدى بالنبي ﷺ ، وبالصحابة .

ويقول سهل فى جمال جميل بمناسبة قوله تعالى :

﴿ هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾^(١) .

يعنى هو أهل أن يتقى فلا يعصى ، وأهل المغفرة لمن يتوب ، والتقوى هى ترك كل شىء مذموم ، فهى فى الأمر ترك التسويف ، وفى النهى ترك الفكرة ، وفى الآداب مكارم الأخلاق ، وفى الترغيب كتمان السر ، وفى الترهيب اتقاء الوقوف عند الجهل ؛ والتقوى هى : التبرى من كل شىء سوى الله ، فمن لزم هذه الآداب فى التقوى فهو أهل المغفرة .

ويتناسق سهل مع القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾^(٢)

فيقول :

والمتقون هم الذين تبرءوا من دعوى الحول والقوة دون الله تعالى ، ورجعوا إلى اللجوء والافتقار إلى حول الله وقوته فى جميع أحوالهم ،

(١) المدثر : ٥٦ .

(٢) الطلاق : ٢ .

فأعانهم الله تعالى ورزقهم من حيث لا يحتسبون ، وجعل لهم فرجًا ومخرجًا مما ابتلاهم الله به .

وإذا ما كانت القوى كان العمل :

أما العمل فإن لسهل فيه نظرية عميقة ، إنه يقول :

« ولا تصح التقوى إلا للمقتدى بالنبي ﷺ وبالصحابة » .

ويقول - فيما رواه محمد بن الحسن -

« أعمال البر يعملها البر والفاجر ، ولا يجتنب المعاصي إلا صديق » .

وقال سهل : « من أحب أن يطلع الخلق على ما بينه وبين الله فهو

غافل » .

ويقول : « ليس من عمل بطاعة الله صار حبيب الله ، ولكن من

اجتنب ما نهى عنه الله صار حبيب الله ، ولا يجتنب الآثام إلا صديق

مقرب .

وأما أعمال البر يعملها البر والفاجر » ويقول سهل عن المؤمنين

بالنسبة للعمل : « المؤمنون الذين وعدهم الله الجنة على ثلاثة مقامات :

واحد آمن وليس له عمل فله الجنة ، وآخر آمن وليس له إثم وعمل

صالحًا وهذا في صفة : ﴿ قد أفلح المؤمنون ﴾^(١) .

والثالث : آمن ثم أذنب ، ثم تاب وأصلح ، فهو حبيب الله فله

الجنة .

(١) المؤمنون : ١ .

والرابع : آمن وأحسن وأساء ، يتبين لهم عند الموازنة ، والله تعالى فيهم مشيئة والعمل الصالح ما كان خاليا من الرياء ، مقيد بالسنة كما يقول سهل ، ولا بد أن يكون العمل الصالح مبنيا على الإيمان والعلم والإخلاص .

يقول سهل : « الإيمان بالفرائض وعلمها فرض ، والعمل بها فرض ، والإخلاص فيها فرض ، والإيمان بالسنن فرض بأنها سنة وعلمها سنة والعمل بها سنة ، والإخلاص فيها فرض ، والإخلاص بالإيمان بالعمل به » .

ويقول سهل بمناسبة قوله تعالى : ﴿ لِيَلْبِغُوا أَيْكُمُ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾^(١) قال : « أى أصوبه وأخلصه ، فإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل ، وإذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل حتى يكون صوابا خالصا ، والخالص الذى يكون لله تعالى بإرادة القلب ، والصواب الذى يكون على سبيل السنة وموافقة الكتاب » .

ويقول الله تعالى :

﴿ أَنْ الْأَرْضُ يَرِثَهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴾^(٢) .

ويفسر سهل ذلك فيقول :

أضافهم إلى نفسه وحلاهم بحلية الصلاح ، معناه لا يصلح لى لا ما كان خالصا لى لا يكون لغيرى فيه أثر وهم الذين أصلحوا سيرتهم مع الله تعالى وانقطعوا بالكلية عن جميع ما دونه .

(١) هود : ٧ .

(٢) الأنبياء : ١٠٥ .

الذِّكْر

ومن العمل : الذكر . ولقد سبق أن كتبنا فى استفاضة عن الذكر فى كتابنا « العبادة » ، وكتبنا عنه فى استفاضة فى كتاب خاص بعنوان : ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾ .

وذلك أن من أهم الطرق الموصلة إلى الله : الذكر ؛ وقد حث عليه القرآن الكريم ، وحث عليه الرسول ﷺ ، وهو عماد السبل المؤدية إلى القرب .

ولقد هدد الله سبحانه الغافلين عن ذكره فقال :
﴿ ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا ﴾^(١) .

ويقول سهل فى شرح ذلك :

« قد حكم الله أنه لا يعرض عبد عن ذكره وهو أن يرى بقلبه شيئاً سواه ساكناً إياه إلا سلب الله عليه شيطاناً ليضله عن طريق الحق ويغريه » .

ويقول سهل عن الذكر :

« حياة القلب الذى يموت بذكر الحى الذى لا يموت » .

إن الذين أعطاهم الله تعالى فهم القرآن هم خاصة الله وأولياؤه لا هم للدنيا ولا الدنيا منهم فى شىء ، ولا فيما فى الجنة رغبوا أخذ منها

(١) الزخرف آية : ٣٦ .

الدنيا فلم يالوا ووهبها لهم فردوها كما ردها نبيهم ﷺ ، لما عرضت عليه ، طرحوا أنفسهم بين يديه رضا وسكوناً إليه ، وقالوا :
لا بد لنا منك أنت أنت لا نريد سواك ، فهم المتفردون بالله ، كما قال
النبي ﷺ سيروا سير المتفردين إلى رحمة الله .

قالوا : ومن المتفردون يا رسول الله ؟

قال : الذين اهتموا بالذكر لله تعالى ، يأتون يوم القيامة خفافاً قد
حط الذكر عنهم أثقالهم قال سهل :

هم المشايخ المستهترون^(١) في الذكر لله تعالى مجالسون كما قال النبي
ﷺ يقول الله تعالى :

« أنا جليس من ذكرني ، حيث ما التمسني وجدني .

وقال تعالى : ﴿فأينما تولوا فثم وجه الله﴾^(٢) .

ويرى سهل أن الآية القرآنية الكريمة :

﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾^(٣) .

تشير - مع معناها - إلى القلب ، إنه يقول :

الإشارة في البيوت إلى القلب فمنها ما هو عامر بالذكر ، ومنها
ما هو خرب بالغفلة ، ومن ألهمه الله عز وجل بالذكر فقد خلصه من
الظلم . «

(١) المستهترون : بفتح التاءين هم المكثرون من الذكر .

(٢) البقرة : ١١٥ .

(٣) النمل : ٥٢ .

والذاكر على الحقيقة هو - فيما يرى سهل - « من يعلم أن الله مشاهده فيراه بقلبه قريباً منه فيستحي منه ، ثم يؤثره على نفسه وعلى كل شيء من جميع أحواله » .

ويقول : « من انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر فقد ضيع حاله » .
ولكن الخاتمة الجميلة التي نختم بها موضوع الذكر عند سهل هي قوله :

« من انتقل من نفس إلى نفس بغير ذكر ، فقد ضيع حاله » .

الحمد

ومن الذكر : الحمد :

والحمد لله هو مفتاح سورة الفاتحة : نردده معها كل يوم أكثر من مرة في سجودنا ، وهو من جملة الباقيات الصالحات التي أعلن عنها رسول الله ﷺ وهي : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » ،

عن أنس رضی الله عنه قال : كنت مع رسول الله ﷺ ، جالساً في الحلقة ، إذ جاء رجل فسلم على رسول الله ﷺ والقوم فقال : السلام عليكم ورحمة الله ؛ فرد رسول الله ﷺ :

وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته :

فلما جلس الرجل قال :

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، كما يحب ربنا أن يحمده وينبغي له .

فقال له رسول الله ﷺ : كيف قلت ؟ فرد عليه كما قال ، فقال النبي ﷺ :

« والذي نفسي بيده ، لقد ابتدرها عشرة أملاك ، كلهم حريص

على أن يكتبها ، فما ذرّوا كيف يكتبونها حتى رفعوها إلى ذى العزة ،
فقال : اكتبوها كما قال عبدى «^(١)» .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما - فيما رواه الإمام أحمد ،
وابن ماجه - أن رسول الله ﷺ :

« حدثهم أن عبداً من عباد الله قال : يارب لك الحمد كما ينبغي
لجلال وجهك ، ولعظيم سلطانك ، فعضّلتُ بالملكين^(٢) فلم يدريا
كيف يكتبانها ؟ فصعدا إلى السماء ! فقالا :

ياربنا إن عبدك قد قال مقالة لا ندرى كيف نكتبها ؟

قال الله وهو أعلم بما قال عبده ، ماذا قال عبدى ؟

قالا : يارب إنه قال : يارب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ،
ولعظيم سلطانك ، فقال الله لهما : اكتبها كما قال عبدى حتى يلقانى
فأجزيه بها » .

ويقول سهل فى الحمد :

« ما من نعمة إلا والحمد أفضل منها ، والنعمة التى أهم بها الحمد
أفضل من النعمة الأولى ، لأن بالشكر يستوجب المزيد » .

(١) رواه أحمد ورواته ثقات ، والنسائى ، وابن حبان فى صحيحه إلا أنهما قالوا :

« كما يجب ربنا ويرضى » .

(٢) انظر الترغيب والترهيب « كتاب الذكر والدعاء » ومعنى عضّلت : صعب

عليهم تقدير ثوابها .

الشكر

ويتصل بالحمد : الشكر

ويقول الله تعالى :

﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾^(١) ويقول سهل : « أدنى الشكر أن .
لا تعصيه بنعمه ، ومرة أخرى يقول بهذا المعنى : أول درجات الشكر :
الطاعة .

وحينما فسر سهل قوله تعالى : ﴿قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك
التي أنعمت علي﴾^(٢) .

قال : أى ألهمنى التوبة والعمل بالطاعة ، ونقول فى النهاية مع
سهل :

« ليس للعبد أن يتكلم إلا بأمر سيده وأن يبطش إلا بأمره وأن يمشى
إلا بأمره ، وأن يأكل وينام ويتفكر إلا بأمره ، وذلك أفضل الشكر
الذى هو شكر العباد لسيدهم » .

ويسلم الذكر والحمد والشكر إلى التوكل .

ويزعم بعض الناس أن العمل الكسب ينافى التوكل ، فما حكم
الدين ؟

(١) إبراهيم : ٧ .

(٢) النمل : ١٩ .

لقد رأى سيدنا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، بعض الناس ،
ولاحظ أنه لا يبدو عليهم أنهم من أهل العمل والكسب ، فسألهم :
من أنتم ؟

فقالوا : متوكلون .

فقال : كذبتهم ، ما أنتم متوكلون ، إنما المتوكل : من ألقى حبة
فى الأرض وتوكل على الله ، إن الجو الإسلامى كله ، ينادى بالعمل
والكفاح ، فى سبيل الرزق والقوت ، ويبين أن العمل والكفاح لا يتنافى
والتوكل ، بين ذلك من الناحية النظرية ، ومن الناحية التطبيقية .

أما الناحية النظرية ، فإن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من
رزقه﴾^(١) .

ولقد استفاض ، رسول الله ﷺ فى بيان وجوه الكسب ، ومما ورد
فى ذلك ما رواه أبو داود ، عن أنس رضى الله عنه ، أن رجلاً من
الأَنْصار أتى النبى ﷺ فسأله ، فقال النبى له :

« أما فى بيتك شىء » ؟

قال : بلى حلس - وهو نوع من الكساء - نلبس بعضه ، ونبسط
بعضه ، وقعب - وهو قدح للشراب - نشرب فيه الماء .

فقال رسول الله ﷺ :

« اثنتى بهما » .

(١) الملك : ١٥ .

فأتاه بهما فأخذهما رسول الله ، ﷺ ، بيده وقال :

« من يشتري من هذين ؟ »

قال رجل : أنا أخذهما بدرهم .

قال رسول الله ، ﷺ :

« من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثا .

قال رجل : أنا أخذهما بدرهمين ، فأعطاهما إياه ، فأخذ الدرهمين وأعطاهما الأنصارى وقال : « اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً فأتني به . »

فأتاه به ، فشد رسول الله ، ﷺ ، عوداً بيده ، ثم قال : « اذهب فاحتطب وبع ولا أرينك خمسة عشرة يوماً . »

ففعل فجاء وقد أصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوباً ، وبعضها طعاماً ؛ فقال له رسول الله ، ﷺ :

هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة .
هذا من الناحية النظرية .

وماذا عن العمل من الناحية التطبيقية ؟

روى البخارى رضى الله عنه : « أن المهاجرين حينما قدموا المدينة آخى رسول الله ، ﷺ ، بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع ، فأراد سعد وكان من أكثر الانصار مالاً ، أن يشاطر عبد الرحمن ماله . »

فقال له عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ،
ثم سأل عن السوق فدلوه عليه ، فذهب وباع واشترى ، ثم عاد
ومعه بعض السلع وتابع الأمر من الغد .

وبعد قليل جرى المال فى يده فتزوج واستقل فى بيت وأصبح فيما
بعد من أكثر المسلمين أموالاً ومن أكثر المسلمين صدقة .

وهذا أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه لما بوىع بالخلافة أصبح
ذاهباً إلى السوق ليتاجر كعادته ، فلحق به الصحابة وتكاثروا عليه
ليمنعوه قائلين : كيف تفعل ذلك وقد أقمت لخلافة النبوة ؟ فقال
رضى الله عنه : لا تشغلونى عن عيالى فإنى إذا ضيعتهم كنت لغيرهم
أضيع ففرضوا له قوت أهل بيت من المسلمين .

ويستحيل أن يقال : إن الصديق ، أو عبد الرحمن بن عوف لم يكونا
متوكلين ، فمن أولى إذن بالتوكل منهما ؟ .

والمثل الأعلى للكفاح الدائب الدائم إنما يتمثل فى رسول الله ، ﷺ ،
وهذا الكفاح الدائب الدائم كان يصاحبه التوكل ويسبقه فى كل مشروع
ويستمر بعد المشروع لأنه سبحانه :

﴿إليه المصير﴾^(١) .

ولأن الوضع عند المؤمن هو ما عبر الله عنه :

﴿إليه يرجع الأمر كله﴾^(٢) .

(١) غافر : ٣ .

(٢) هود : ١٢٣ .

والمؤمن مؤمن بقوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾^(١) .

وقد سبق أن كتبنا عن التوكل عند سهل ، وهذه نصوص له في التوكل :

إنه يقول : « التوكل » الاسترسال مع الله على ما يريد .

ويقول : « ما التوكل » ؟

التوكل طرح البدن في العبودية ، وتعلق القلب بالربوبية ، والتبري من الحول والقوة .

ويقول : « من طعن في التوكل ، فقد طعن في الإيمان » .

قال تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾^(٢) .

وهذه المقامات لا يستقيم أمرها ، ولا يقر لها قرار إلا إذا تحلى الإنسان بفضيلة :

(١) الحج : ٤١ .

(٢) المائدة : ٢٣ .

الصبر

وقد تحدث سهل عن الصبر أكثر من مرة في استفاضة أحياناً ،
وفى إيجاز أحياناً أخرى .

ومن أجمع أحاديثه عن ذلك ما يلي .

قيل : ما الصبر ؟

قال : لا عمل أفضل من الصبر ، ولا ثواب أكثر من ثواب الصبر ،
ولا زاد إلا التقوى ، ولا تقوى إلا بالصبر ، ولا معين على الصبر لله
إلا الله عز وجل .

قيل : الصبر من الأعمال ؟

قال : نعم الصبر من العمل بمنزلة الرأس من الجسد ، لا يصلح
أحدهما إلا بصاحبه .

قيل : ما أجل الصبر ؟

قال : أجله انتظار الفرج من الحق .

قيل : فما أصل الصبر ؟

قال : مجاهدة النفس على إقامة الطاعات ، وأدائها بأحكامها
وحدودها ومكابدتها على اجتناب المعاصي صغيرها وكبيرها .

قيل : والناس في الصبر كيف هم ؟

قال : الناس في الصبر صنفان ، فصنف يصبرون للدنيا حتى ينالوا

منها ما تشتهي أنفسهم فهو الصبر المذموم ، وصنف يصبرون للآخرة طلبًا لثواب الآخرة وخوفًا من عذابها .

قيل : فالصبر للآخرة هو على نوع واحد أو على أنواع .

قال : الصبر للآخرة له أربعة مقامات . فثلاث منها فرض ، والرابع فضيلة : صبر على طاعة الله عز وجل ، وصبر عن معصيته ، وصبر على المصائب من عنده ، أو قال : صبر على أمر الله عز وجل ، وصبر على نهيه ، وصبر على أفعال الله عز وجل ، فهذه ثلاثة مقامات منه وهي فرض ، والمقام الرابع فضيلة ، وهو الصبر على أفعال المخلوقين ، قال الله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾^(١) .

أذن بالمثل وفضل الصبر ؛ ثم قال : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾^(٢) ولا يعين عليه إلا هو » والقمة النفيسة في الصبر أن يصاحبه : الرضى وحينما يشرح سهل قوله تعالى : ﴿ فَصَبِرْ جَمِيلًا ﴾^(٣) يقول : الصبر مع الرضا . قيل : وما علامته ؟ قال : أن لا يجزع فيه . فسئل : بأى شيء يحصل التجمل بالصبر ؟

قال : بالمعرفة بأن الله تعالى معك ، وبراحة العافية ، فإنما الصبر مثل قدح أعلاه الصبر وأسفله العسل ، ثم قال :

(١) النحل : ١٢٦ .

(٢) النحل : ١٢٧ .

(٣) يوسف : ١٨ .

عجبت ممن لم يصبر ، كيف لم يصبر للحال ورب العزة يقول :
﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(١) .

* * *

إن ما سبق هو بعض منازل السائرين إلى الله التي تسلم إلى الولاية ،
وقبل أن نتحدث عن الولاية نروى عن سهل ما يلي ، زيادة في إيضاح
الفكرة عن منازل السائرين للحق سبحانه :

« بادروا بالتوبة من السيئات حتى تأمنوا العقوبة ، وتصيروا أحباب
الله ، فإن الله يحب التوابين » .

ويقول : « إن الأمراض والأسقام ، والأحزان والمصائب : إنما هي
كفارات للصغائر ، وأما الكبائر فلا يسقطها إلا التوبة ، ومثله كمثل
حبر يصيب الثوب فلا يقلعه إلا الصابون الحاد ، والمعالجات بالخل
والأشنان وغيره .

ومثل الصغائر كمثل قليل دبس^(٢) يصيب الثوب يذهبه الريق ،
وقليل من الماء فقيل : يا أبا محمد أليس قد روى أن المصائب كفارات
وأجر ؟ فضحك ، وقال : إن المصائب إذا ضم إليها الصبر والاحتساب
تكون كفارة وأجرًا كلاهما ؛ فأما إذا لم يصبر عليها ولم يحتسبها تكون
كفارات وحططا لا أجر فيها ولا ثواب :

وبيان ذلك أن المصائب فعل غيرك ولا تثاب على فعل غيرك ، وصبرك
واحتسابك فعل لك فتؤجر وتثاب .

(١) البقرة : ١٥٣ .

(٢) ما يسيل من الرطب .

وقيل : أى العمل يعمل حتى يعرف عيوب نفسه ؟ قال :
لا يعرف عيوب نفسه حتى يحاسب نفسه فى أحواله كلها .
قيل : فأى منزلة إذا قام العبد بها قام مقام العبودية ؟
قال : إذا ترك التدبير .

قيل : فأى منزلة إذا قام بها أقام الصدق ؟
قال : « إذا توكل عليه فيما أمره به ونهاه عنه » .
ويقول رضى الله عنه فى تفسير قوله تعالى :
﴿ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله ﴾^(١) يقول :
« العبادة زينة العارفين ، وأحسن ما يكون العارف إذا كان فى ميادين
العبودية والخدمة يترك ماله لما عليه » .
ويقول : « لا يكمل للعبد شىء حتى يصل علمه بالخشية ، ولعله
بالورع ، وروعه بالإخلاص ، وإخلاصه بالمشاهدة ، والمشاهدة بالتبرى
مما سواه » .

وكان يقول : يلزم الصوفى ثلاثة أشياء :
« حفظ سره ، وصيانة فقره ، وأداء فرضه » .

(١) النحل : ٣٦ .

الولاية

يقول الله تعالى : ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١) .

قد حدد الله سبحانه الولي بأنه المؤمن المتقى .

ويتناسق سهل مع القرآن الكريم كشأنه دائماً في اتخاذ القرآن والسنة ، إماماً له فيقول : « الولي من توالى أعماله على الموافقة » وقال : « من أسلم قلبه لله تولى الله جوارحه » .

ويتحدث سهل عن الأولياء ودرجاتهم بمناسبة تفسيره للآية القرآنية الكريمة : التي صدرنا بها هذا الموضوع فيقول : هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ :

« إذا رُؤوا ذكر الله ، وهم المجاهدون في الله ، السابقون إليه ، الذين توالى أفعالهم على الموافقة ، أولئك هم المؤمنون حقا .

وقال : اجتمع الخير كله في هذه الأربعة وبها صاروا أبدالاً : أخصاص البطون ، والاعتزال عن الخلق ، وسهر الليل ، والصمت .

قيل له : لم سمى الأبدال أبدالاً ؟

(١) يونس : ٦٢ - ٦٤ .

فقال : لأنهم يبدلون الأحوال ، أخرجوا أبدانهم عن الحيل في سرهم ، ثم لا يزالون ينتقلون من حال إلى حال ، ومن علم إلى علم ، فهم أبداً في المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

قيل : الأوتاد أفضل أم الأبدال ؟

قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال : لأن الأوتاد قد بلغوا وثبتت أركانهم ، والأبدال ينقلبون من حال إلى حال .

وما دام الإيمان يزيد وينقص فهناك إذن درجات في الولاية ، وسم هذه الدرجات بأى اسم شئت ، فإنه كما يقول الأصوليون :

لا مشاحة في الاصطلاح .

والأمر في هذا التقسيم ، وفي التسمية لا يثير جدلاً إلا عند من ديدنهم الجدل ، فإنه ما دام هناك زيادة ونقص فهناك درجات ، وما دام هناك درجات ، فإنه يمكن وضع أسماء لهذه الدرجات والله سبحانه قسم أوليائه إلى درجات كثيرة يقول سبحانه :

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً﴾ ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً^(١) .

(١) النساء : ٦٩ - ٧٠ .

ومن أولياء الله المتقون ، والأوابون ، والصابرون والمحسنون ،
والمقربون ، والسابقون والسابقون ، وهكذا .
وإذا استولى الله ولياً علمه .

ومن طرائف ما يروى فى ذلك حادثة الإمام الشعرانى مع الإمام
الخواص :

لقد كان الإمام الشعرانى رضى الله عنه يمر بالإمام الخواص -
وهو أُمى - يجد الناس تلتف حوله وتسأله ؛ وكان الإمام الشعرانى
- قبل اتخاذ الإمام الخواص شيخاً له - يضيق بذلك ذرعاً فيقول فى
مواجهة الخواص ، وعلى مسمع من الناس :
« ما اتخذ الله من ولى جاهل » .

وتكرر ذلك والإمام الخواص لا يلتفت إليه .
وفى يوم من الأيام التفت إليه فى هدوء وقال له : « يتخذہ ويعلمه » .
وبدأ الإمام الشعرانى العالم يتقرب شيئاً فشيئاً إلى الإمام الخواص
الأمى ، وانتهى الأمر بأن اتخذہ شيخاً وكتب عنه هذا الكتاب النفيس
المسمى :

« درة الغواص فى أجوبة الخواص » .

ومن هذا القبيل يقول الإمام سهل :
« إن الله تعالى ما استولى ولياً من أمة محمد ﷺ إلا علمه القرآن ،
إما ظاهراً وإما باطناً ؛ قيل له :
إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو ؟

قال : فهمه ، وإن فهمه هو المراد .

قال أبو بكر السجزي : سمع مني هذه الحكاية الجنيـد فقال : صدق سهل كان عندنا ببغداد عبد أسود أعجمي اللسان نسأله عن القرآن آية آية فيجيبنا عن ذلك بأحسن جواب وهو لا يحفظ القرآن وتلك دلالة ولايته .

ومع ذلك فإن سهل - وهو الإمام المتزن - يحذر الأولياء فيقول : « لو أن واحداً دخل بستاناً فيه أشجار كثيرة ، وعلى كل شجرة طير يقول له بلسان فصيح : السلام عليك يا ولي الله ، فلو لم يخف أنه مكر لكان ممكوراً .

وأعلى درجات الولاية هي درجة الصديقية .

ولقد سئل سهل عن هذه الدرجة فأخذ يتحدث عنها وعن أخلاق الذين ارتقوا بتوفيق الله إليها ، وعن أخلاق الأولياء على وجه العموم .

لقد سئل : من الصديقون ؟

قال : « الذين عدوا أنفاسهم بالتسييح والتقديس ، وحفظوا الجوارح والحواس فصار قولهم وفعلهم صدقاً ، وصار ظاهرهم وباطنهم صدقاً ، وصار دخولهم في الأشياء وخروجهم عنها بالصدق ، ومرجعهم إلى مقعد صدق بقد صدق عند مليك مقتدر . »

ومن أخلاقهم - كما يروى عنه أبو محمد الحريري - يقول :

« من أخلاق الصديقين ألا يحلفوا بالله ، لا صادقين ولا كاذبين ، ولا يفتابون ولا يفتاب عندهم ، ولا يشبعون بطونهم ، وإذا وعدوا

لم يخلفوا ، ولا يتكلمون إلا والاستثناء في كلامهم ، ولا يمزحون أصلاً .

وبمناسبة تفسير سهل لقوله تعالى : ﴿ وما رزقناهم ينفقون ﴾ (١) .
يقول : « إن الله تعالى وصف بذلك من جبهه بجبهه متعاقباً بسبب من سببه غير منفك عن مراقبته ، وهم الذين لم يختاروا قط اختياراً ، ولا أرادوا شيئاً دونه ، ولا اختياراً دون اختياره لهم ، كما اختاره لهم ، ولا أرادوا شيئاً يصرفهم عنه ، ومن غيره هم مبرءون » .
ويصاحب الولاية في جميع مراحلها :

(١) الأنفال : ٣ .

الحب لله

وقد تحدث الله سبحانه أنه : ﴿يحب التوايين﴾^(١) و ﴿يحب المتطهرين﴾^(٢) و ﴿يحب المحسنين﴾^(٣) .
وهكذا .

ومفهوم سهل في المحبة مفهوم دقيق ، إنه يقول : « المحبة أن تحب ما يحبه حبيبك ، وتكره ما يكره » ويرى سهل أن الحب لله يلازمه الخوف ، والمحبة لا يفارقه الخوف ، ومن هنا يروى عن سيدنا أبي بكر أنه قال :

« لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمي في الجنة » .

ويقول سهل : « النيران أربعة ، نار الشهوة ، نار الشقاوة ، ونار القطيعة ، ونار المحبة .

فإن الشهوة تحرق الطاعات ، ونار الشقاوة تحرق التوحيد ، ونار القطيعة تحرق القلوب ، ونار المحبة تحرق النيران كلها .

ولقد حكى أن علي بن الحسين رضي الله عنه دخل مغارة مع أصحابه فرأى امرأة في المغارة وحدها .

(١) البقرة : ٢٢٢ .

(٢) البقرة : ٢٢٢ .

(٣) المائدة : ٩٣ .

فقال لها : من أنت ؟

قالت : أمة من إماء الله إليك عنى لا يذهب الحب .

فقال لها على رضى الله عنه : وما الحب ؟

قالت : أخفى من أن يُرى ، وأبين من أن يخفى كمنه فى الحشاء
ككمنون النار فى الحجر ، إن قدحته أورى ، وإن تركته توارى ، ثم
أنشأت تقول :

« إن المحيين فى شغل لسيدهم
كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا »

ولقد قيل لسهل : أى شىء يفعل الله بعبده إذا أحبه ؟

قال : يلهمه الاستغفار عند التقصير ، والشكر له عند النعمة ،

ويقول : قال الله لآدم : يا آدم إني أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن رجا
غير فضلى ، وخاف غير عدلى لم يعرفنى ، يا آدم إن لى صفوة وضئائن ،
وخيرة من عبادى ، أسكنتهم صلبك ؛ بعينى من بين خلقى ، أعزهم
بعزى ، وأقربهم من وصلى ، وأمنحهم كرامتى ، وأبيح لهم فضلى ،
وأجعل قلوبهم خزائن كتبى ، وأسترهم برحمتى ، وأجعلهم أمانا بين
ظهرانى عبادى ؛ فبهم أمطر السماء ، وبهم أنبت الأرض ، وبهم أصرف
البلاء ، وهم أوليائى وأحبائى .

درجاتهم عالية ، ومقاماتهم رفيعة ، وهمهم بى متعلقة ، صحت
عزائمهم ، ودامت فى ملكوت غيرى فكرتهم فارتفعت قلوبهم

بذكرى ، فسقيتهم بكأس الأوس صرف محبتي ، فطال شوقهم إلى
لقائي ، وإنى إليهم لأشد شوقا ؛

يا آدم من طلبني من خلقتي وجدني ، ومن طلب غيري لم يجدني ،
فطوبى يا آدم لهم ثم طوبى لهم ثم طوبى لهم وحسن مآب .

يا آدم هم الذين إذا نظرت إليهم هان على غفران ذنوب المذنبين
لكرامتهم على « اه .

وبعد : فإننا نختم هذا بهذه الكلمة الجميلة لسهل :

« طوبى لمن تعرف بالأولياء ؛ فإنه ربما استدرك ما فاته من الطاعة ،
وإن لم يستدرك شفَعوا فيه ؛ لأنهم أهل فتوة » .

الفضل السابع

الطريق من زاوية الولاية والكرامات

سبق أن تحدثنا في بعض كتبنا عن الكرامات ، وأنها مذكورة ، في القرآن الكريم ، وفي السنة النبوية الشريفة .

والواقع أن الخلاف الذي يثار في هذا الموضوع عادة إنما هو في إثبات كرامة معينة لشخص معين ، وهذا الخلاف أمره هين ، ومن أنكر كرامة معينة وقعت بالنسبة لشخص معين ، فليس معنى ذلك أنه أنكر الكرامات جملة ، وإثبات الكرامات محل اتفاق بين أهل السنة .

ويتحدث سهل عن الكرامات وعن الأولياء في كثير من النصوص المتناثرة هنا وهناك ، وحديثه عنها يتسم بالجد وبالعمق ، وهو يتحدث عن تجربة ومشاهدة ، ويتحدث عن منطق وعقل .

وتأمل أولاً ما يقول سهل : « أظهر الله تعالى آياته لأولياءه ، وجعل السعيد من عباده من صدقهم على كراماتهم ، وأعمى أعين الأشقياء عن ذلك ، وصرف قلوبهم عنه ، ومن أنكر آيات الأولياء ، فإنما ينكر قدرة الله تعالى ، فإن القدرة تظهر على الأولياء الآيات ، لاهم بأنفسهم يقدرون على إظهارها ، كما قال :

﴿ويريكم آياته ، فأى آيات الله تنكرون﴾^(١) .

(١) غافر : ٨١ .

ويتحدث سهل - عن مخالطة ومشاهدة - عن بعض الكرامات
فيقول :

« مخالطة الولي بالناس ذلّ ، وتفردّه عزّ ، وما رأيت أولياء الله تعالى
إلا منفردين ؛ إن عبد الله بن عبد الله بن صالح رحمهم الله ، كان رجلاً
له سابقة جلييلة ، وموهبة جزيلة ، وكان يفرّ من بلد إلى بلد ، حتى
يأتى مكة ، فظال بها مقامه فقلت له :

لقد ظال مقامك بها ؟ فقال : ولم لا أقيم بها ، ولم أر بقعة ينزل
فيها من الرحمة والبركة مثلها ؟ يطوف الملائكة حول البيت غدوة
وعشية ، على صور شتى ، لا يقطعون ذلك ، وإن فيها عجائب كثيرة ،
ولو قلت كلما رأيت : لصغت عنه قلوب أقوام ليسوا بمؤمنين .

فقلت : أسألك بحق الحق ، أن تخبرني بشيء من ذلك ؟

فقال : ما من وليّ لله تعالى صححت ولايته إلا وهو يحضر في هذه
بلد في كل ليلة جمعة ؛ ولقد رأيت رجلاً يقال له مالك بن القاسم
لجيلي رحمه الله تعالى ، ليلة هاهنا ، ورأيت على يده غمراً فقلت :
إنك لقريب العهد بالأكل ؟ فقال :

أستغفر الله فإنني منذ أسبوع لم أطعم شيئاً ، ولكنني أطعمت والدتي
أسرعت لأدرك صلاة الفجر هاهنا جماعة ، وبين مكة وبين الموضع
ذي جاء منه سبعمائة فرسخ ، فهل أنت مؤمن بذلك ؟ فقلت : بلى .
فقال : الحمد لله الذي أراني مؤمناً .

وقال ابن سالم : كنت عند سهل رحمه الله تعالى ، فأثاب رجلاً
د صلاة العصر وجعلنا يحدثان ، فقلت في نفسي : لقد أبطننا عنده ،

وما أراهما يرجعان فى هذا الوقت ، وذهبت إلى منزلى لأهيبُ لهما عشاء ، فلما رجعت إليه لم أر عنده أحداً فسألت عن حالهما فقال :
 « إن أحدهما يصلى المغرب بالشرق والآخر بالمغرب ، وإنما أتاني زائرين » ا. هـ .

ولقد سئل سهل مرة عن كيفية إدراك منزلة الكرامات فقال :
 « من زهد فى الدنيا أربعين يوماً صادقاً مخلصاً فقد ظهرت الكرامات من الله عز وجل له ، ومن لم تظهر له فهو لما فقدَ من زهده من الصدق والإخلاص » ا. هـ .

ولكن من هم الأولياء ؟ يتحدث سهل عن ذلك بمناسبة قوله تعالى :
 ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١) قال سهل :
 « هم الذين وصفهم رسول الله ﷺ ، إذا رثوا ذكر الله ، وهم المجاهدون فى الله ، السابقون إليه ، الذين توالى أفعالهم على الموافقة ، أولئك هم المؤمنون حقاً .

وقال : اجتمع الخير كله فى هذه الأربعة ، وبها صارو أبدالاً :
 أخصاص البطون ، والاعتزال عن الخلق ، وسهر الليل ، والصمت
 قيل له : لم سمى الأبدال أبدالاً ؟
 فقال : لأنهم يبدلون الأحوال ، أخرجوا أبدانهم عن الحيل فى سرهم ، ثم لا يزالون ينتقلون من حال إلى حال ؛ ومن علم إلى علم فهم أبدالاً فى المزيد من العلم فيما بينهم وبين ربهم .

(١) يونس : ٦٢ .

قيل : الأوتاد أفضل أم الأبدال ؟

قال : الأوتاد .

قيل : وكيف ذلك ؟

قال : لأن الأوتاد قد بلغوا وثبتت أركانهم ، والأبدال ينقلون من حال إلى حال .

وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهِمْ ﴾ (١) .

« إن الله تعالى خلق القلوب وأقفل عليها بأقفال ، وجعل مفاتيحها حقائق الإيمان فلم يفتح بتلك المفاتيح على التحقيق إلا قلوب المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، وأنبياءه ، والصدقيين وأوليائه .

وسائر الناس يخرجون من الدنيا ولم يفتح أقفال قلوبهم .

والزهاد والعباد والعلماء خرجوا منها وقلوبهم مقفلة ، لأنهم طلبوا مفاتيحها في العقل فضلوا الطريق ، ولو طلبوه من جهة التوفيق والفضل لأدركوه ، والمفتاح أن تعلم أن الله قائم عليك ، رقيب على جوارحك ، وتعلم أن العمل لا يكمل إلا بالإخلاص مع المراقبة » .

ولقد تحدث سهل عن الأنبياء والأولياء معاً في مواضع من تفسيره فقال :

« وما من أحد في الدنيا إلا غلبه إبليس لعنه الله فأسره ، إلا الأنبياء صلوات الله عليهم . والصدقيون الذين شاهدت قلوبهم إيمانهم في مقاماتهم ، وعرضوا اطلاع الله عليهم في جميع أحوالهم ، فعلى قدر

(١) محمد : ٢٤ .

مشاهدتهم يعرفون الابتلاء ، وعلى قدر معرفتهم الابتلاء يطلبون العصمة ، وعلى قدر فقرهم وفاقتهم إليه يعرفون الضر والنفع ، ويزدادون علماً وفهماً ونظراً .

ثم قال : ما حمل الله على أحد من الأنبياء ما حمل على نبينا محمد - ﷺ - من الخدمة ، وما من مقام خدمة الله تعالى بها من ولد آدم عليه السلام إلى أن بعث نبينا - ﷺ - إلا وقد خدم الله بها نبينا - ﷺ . وقال بمناسبة قوله تعالى : ﴿ السابقون السابقون ﴾ (١) .

« هم الذين سبق لهم من الله الاختيار والولاية قبل كونهم ، المقربون في منازل القرب وروح الأنس ، وهم الذين سبقوا في الدنيا :

فسبق الأنبياء إلى الإيمان بالله ، وسبق الصديقون والشهداء من الصحابة وغيرهم إلى الإيمان بالأنبياء » .

وقال سهل : « انتهت همم العارفين إلى الحجب فوقفت مطرقة ، فأذن لها بالدخول فدخلت فسلمت ، فخلع عليها خلع التأيد ، وكتب لها من الرقع براءات .

وإن همم الأنبياء صلوات الله عليهم جالت حول العرش فألبست الأنوار ، ورفع منها الأقدار ، واتصلت بالجبار ، فأفنى حظوظها ، وأسقط مرادها ، وجعلها متصرفة به له .

وقال : آخر درجات الصديقين أول الأحوال للأنبياء صلوات الله عليهم ، وإن نبينا - ﷺ - عبد الله تعالى بجميع أحوال الأنبياء .

(١) الواقعة : ١٠ .

وبمناسبة قوله تعالى : ﴿وَأَدْخَلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾^(١)
قال :

يعنى ارزقنى قرية أوليائك لأكون من جملتهم ، وإن لم أصل إلى مقامهم .

أما مهمة الأولياء فإن سهلاً يتناسق فى تحديدها مع مهمة الرسل ، وهى الاقتداء برسول الله فى نشر الدعوة النبوية ، والجهاد فى سبيلها ، إنه يقول :

« إن الله تعالى أخذ على أوليائه التذكرة لعباده ، كما أخذ التبليغ على أنبيائه صلوات الله عليهم أجمعين .

فعلى أولياء الله أن يدلوا عليه ، فمتى قعدوا عن ذلك كانوا مقصرين .

ومع ذلك فأرجو أن يتدبر القارئ الكريم قول سهل ، وقد سئل عن الكرامات فقال : « وما الكرامات ؟ إن الكرامات شىء ينقضى وقته ، ولكن الكرامات أن تبدل خلقاً مذموماً من أخلاقك بخلق محمود .

وقال له تلميذه عبد الرحمن بن أحمد :

يا سيدى : ربما أتوضأ فإلى الذى يسيل من أعضائى يصير قضبناً
ن الذهب والفضة ؟

فقال له : « أما علمت أن الصبيان إذا بكوا يعطوا خشخاشة يشتغلون
ل ؟ » .

(١) النمل : ١٩ .

ونختم هذه النصوص بقوله عن الرسول - ﷺ - وقد سئل عن معنى قوله - ﷺ - « إني لست كأحدكم ، إن ربي يطعمني ويسقيني » فقال :

« ما كان معه طعام ولا شراب ، ولكنه كان يذكر خصوصيته عند الله تعالى ، فيكون كمن أكل الطعام وشرب الشراب » .
وما من شك في أن رأى سهل فيما سبق رأى موفق ، إنه يتلخص في :

١ - لا شك في أن الكرامات ثابتة بقدره الله تعالى وواقعة لبعض الناس .

٢ - والكرامات في نفسها على الخصوص تشجيع للمبتدئين في العروج إلى الله .

٣ - وأفضل الكرامات هي التخلي عن الأخلاق المذمومة ، والتخلي بالأخلاق الحميدة .

الفصل الثامن

متاثرات عن الطريق في الحكم والمواظب والنصائح والتوجيهات

لسهل بن عبد الله مجموعة ضخمة فيما يتصل بإرشاد الناس في صورة موعظة أو حكمة أو توجيه أو نصيحة ، نذكر منها ما تيسر دون ترتيب معين ..

قال سهل : أيما عبد قام بشيء مما أمره الله به من أمر دينه فعمل به وتمسك به ، فاجتنب ما نهى الله تعالى عنه عند فساد الأمور ، وعند تشويش الزمان ، واختلاف الناس في الرأي والتفريق إلا جعله الله إماماً يقتدى به ، هادياً مهدياً قد أقام الدين في زمانه وأقام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو الغريب في زمانه ، الذي قال رسول الله - ﷺ - : « بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » .

وما من عبد دخل في شيء من السنة وكانت نيته متقدمة في دخوله لله إلا أخرج الجهل من سره شاء أو أبى بتقديمه النية ، ولا يعرف الجهل إلا عالم فقيه زاهد عابد حكيم ، سمعت أبا الحسن بن مقسم ، يقول : سمعت أبا الحسن النحاس جارنا ، يقول سمعت سهل بن عبد الله ، يقول : الفترة غفلة ، والخشية يقظة ، والقسوة موت .

وقال : الغضب أشد على البدن من المرض ، لأنه إذا غضب دخل عليه من الألم أكثر مما يدخل عليه من المرض ، ولهذا قال المصطفى - ﷺ - : « لا تغضب » وكرره

وقال : ما أعرف معصية أقبح من نسيان الرب .

وقال : الجاهل ميت ، والناسي نائم ، والعاصي سكران ، والمصر هالك .

وقال : ما عبد الله بشيء أفضل من مخالفة الهوى .

وقال : مخالطة الفقير للناس ذل ، وبعده عنهم عز .

وقال :

الفتن ثلاثة : فتنة العامة من إضاعة العلم ، وفتنة الخاصة من الرخص ، والتأويلات ، وفتنة أهل المعرفة من أن يلزمهم حق في وقت فيؤخروه .

وقال : الابتلاء كالمرض يمرض الواحد مائة سنة فلا يموت ، ويمرض آخر ساعة فيموت .

وقال عثمان بن محمد العثماني ، سمعت أبا بكر محمد بن يحيى بن أبي بدر يقول ، سمعت أبا محمد سهل بن عبد الله ، يقول : الانقطاع من الشهوات : الخروج من الجهل إلى العلم ، ومن النسيان إلى الذكر ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الإصرار إلى التوبة .

وقال : شيان يذهبان خوف الله من قلب العبد : أصل الدعوى والمعصية ، وصاحب المعصية إذا خوفته واحتججت عليه بالإيمان ينقاد ويخضع ويقر بالخوف ، وصاحب الدعوى ، لا يقر بالحق ولا ينقاد

للخوف البتة ، ولا يوجد قلب أخلى من الخير ولا أقصى ولا أبعد
من خوف الله من قلب المدعى .

وقيل له : ما أغرب الأشياء ؟

قال : قلب عرف الله ثم عصاه .

وقال : اجتنب صحبة ثلاثة أصناف : الجابرة الغافلين ، والقراء
المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين .

وقال : إن الله قال لآدم : أنا الله لا إله إلا أنا ، فمن رجا غير
فضلي ، وخاف غير عدلى ، لم يعرفنى .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول :

من كمل إيمانه ، لم يخف من شيء سوى الله تعالى .

وسمعه يقول : لزوم الباب طلب العبد إلى مولاه أن يشبهه على الإيمان
ويقبضه عليه .

قال : وسمعت سهل بن عبد الله ، يقول : من تخلى من الربوبية
وأفرد الله بها ، واعترف بالعبودية وعبد الله بها ، استحق من الله الملك
الأعظم فى حياة الأبد ، ومن نازع الله ربوبيته قصمه الله ، ألا ترى
أنهم يحبون الغنى ، والله هو الغنى وهم الفقراء ، ويحبون الأمر والنهى ،
والله تعالى يقول : ﴿ألا له الخلق والأمر﴾^(١) ، ويحبون البقاء ، والله
تعالى يقول ، ﴿كل من عليها فان ۝ ويبقى وجه ربك﴾^(٢) ، ويحبون

(١) الأعراف : ٥٤ .

(٢) الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

الدنيا والله يغيضها ، ويريدونها والله لا يريدنها ، فهم ينازعون الله الربوية ويعادونه فيما أحب .

قال : أزهد الناس أصفاهم مطعمًا ، وأعبد الناس أشدهم اجتهادًا في القيام بالأمر والنهي ، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه .

والطهارة على سبعة أوجه : طهارة العلم من الجهل ، وطهارة الذكر من النسيان ، وطهارة الطاعة من المعصية ، وطهارة اليقين من الشك ، وطهارة العقل من الحمق ، وطهارة الظن من النميمة ، وطهارة الإيمان بما دونه .

وقال : فساد الدين بثلاث : الملوك إذا أخذوا في السرف والشهوات ، والعلماء إذا افتوا بالرخص ، والقراء إذا تعبدوا بغير علم ، وإن العلماء يحتاج إليهم الخلق في الدنيا والآخرة .

وقال : قوام الدين والدنيا في ثلاث : العلم والأدب والمبادرة ، وهلاك الدين والدنيا في ثلاث : الجهل والخرق والكسل .

وقال : أربع من دعائم الدين : القيام بالحق على نفسك وغيرها والقعود عن باطل نفسك وغيرها ، والمودة لأهل طاعة الله ، والبغض لأهل معصيته .

وفى قوله تعالى : ﴿الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم﴾^(١) قال : من أراد حفظ القرآن فليختم بثلاث ختمات على شرط :

(١) آل عمران : ١٩١ .

ختمة قائماً يصلى ، وختمة قاعداً يدرس ، وختمة مضطجماً على جنبه ، فإنه لا ينسى إن شاء الله عز وجل .

ومن اشتغل بطلب العلم بالتقوى ، وقراءة القرآن ، وذكر الله عز وجل ، واتباع السنة ، واجتناب اللهو ، لم تصبه الأمراض والأسقام .
ومن أطاع الله بالعلم وصدق النية لم يفقد عقله وقال :

ليس للعبد حيلة سوى أن يواظب فى جميع عمره على قول : رب سلم سلم ، الأمان الأمان ، الغوث الغوث .

وإياك والتدبير فإنه داء النفس ، وإليك بالاقتداء فإنه أساس العمل ، وإياك والعجب فإن أدنى باب منه لم تستمه حتى تدخل النار ، وإليك بالقتوع والرضى ، فإن العيش فيهما ، وإياك والائتمار على غيرك فإنه لينسيك نفسك ، وإليك بالصمت فأنت تعرف الأحوال فيه ، وإليك بترك الشهوات تنقطع به عن الدنيا ، وإليك بسهر الليل تموت نفسك من ميعة طبعك وتحمى قلبك ، وإذا صليت فاجعلها وداعاً ، وخف الله يؤمنك ، وأرجه يؤملك ، واتكل عليه يكفك ، وإليك بالخلوة تنقطع الآفات عنك .

ولقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : لولا مخافة الوسواس لرحلت إلى بلاد لا أنيس بها ، وهل يفسد الناس إلا الناس ؟ .

وقال : ما من عبد أراد الله بعزم صحيح إلا زال عنه كل شيء دونه ، وما من عبد زال عنه كل شيء دونه إلا حق عليه أن يقوم بأمره ، وليس فى الدنيا مطيع لله وهو يطيع نفسه ، ولا يتباعد أحد عن الله إلا بالاشتغال بغير الله ، وإنما تدخل الأشياء على الفارغ ،

وأما من كان مشغول القلب بالله لم تصل إليه الوسوسة وهو فى المزيد
أبدأ واحفظ نفسك بالأصل ، قيل له : ما هو ؟ قال : التسليم لأمر
الله ، والتبرى ممن سواه .

وفى قوله تعالى ﴿وفديناه بذبح عظيم﴾^(١) قال : إبراهيم عليه الصلاة
والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية تداركه من الله فضله وعصمته
حتى أمره بذبحه ، إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح ، وإنما كان المقصود
تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب ، فلما خلاص السر له ورجع
عن عادة الطبع فداه بذبح عظيم .

وفى قوله سبحانه : ﴿إن هذا هو البلاء المبين﴾^(٢) قال يعنى بلاء
رحمة ألا ترون كيف بعثه على الرضا .

وعن قوله تعالى ﴿ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله﴾^(٣) قال : أى
ممن دل على الله وعلى عبادته وسنة رسوله ﷺ ، واجتناب المناهى ،
وإدامة الاستقامة مع الله ، والاستقامة به خوفاً من الخاتمة ، وفى
الطريقة الوسطى والجدادة المستقيمة التى من سلكها سلم ، ومن تعداها
ندم .

من استغنى بغير الله فبغناه افتقر ، ومن اغتر بغيره فبعزه ذل ،
ألا ترى أن الله يقول : ﴿إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا﴾^(٤) .

(١) الصافات : ١٠٧ .

(٢) الصافات : ١٠٦ .

(٣) فصلت : ٣٣ .

(٤) الجاثية : ١٩ .

وفى قوله تعالى ﴿والله الغنى وأنتم الفقراء﴾^(١) قال : معرفة السر كله فى الفقر وهو سر الله ، وعلم الفقر إلى الله تعالى تصحيح علم الغنى بالله عز وجل والله سبحانه وتعالى أعلم .

وعن قوله تعالى ﴿والزَّمَمُ كَلِمَةُ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾^(٢) قال : هى كلمة لا إله إلا الله فإنها رأس التقوى ، ثم قال خير الناس المسلمون ، وخير المسلمين المؤمنون ، وخير المؤمنين العلماء العاملون ، وخير العاملين الخائفون ، وخير الخائفين المخلصون المتقون الذين وصلوا إخلاصهم وتقواهم بالموت ، فإن مثله كمثل راكب السفينة بالبحر لا يدري ينجو منه أم يغرق فيه ، والذين تم لهم ذلك أصحاب رسول الله ﷺ بقوله : ﴿والزَّمَمُ كَلِمَةُ التَّقْوَى﴾ .

وفى قول الله سبحانه : ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٣) .

قال : يعنى ففروا مما سوى الله إلى الله ، وفروا من المعصية إلى الطاعة ، ومن الجهل إلى العلم ، ومن عذابه إلى رحمته ، ومن سخطه إلى رضوانه ، وقد قال النبى - ﷺ - « أَعُوذُ بِكَ مِنْكَ فَهَذَا أَيْضًا بَابٌ مِنْهُ عَظِيمٌ » .

وقال سهل : تربة المعاصى الأمل ، وبذرها : الحرص ، وماؤها الجهل ، وصاحبها الإصرار ، وتربة الطاعة المعرفة ، وبذرها اليقين ، وماؤها العلم ، وصاحبها السعيد المفوض أموره إلى الله تعالى .

(١) محمد : ٣٨ .

(٢) الفتح : ٢٦ .

(٣) الذاريات : ٥٠ .

وقال : لا يطلع على عثرات الخلق إلا جاهل ، ولا يهتك ستر ما اطلع عليه إلا ملعون .

وقال :

من علم أن الله قريب منه فقد بعد عن كل ما سواه .

وقال :

دع التدبير والاختيار لله الواحد القهار ، فإن تدبير الخلق لأنفسهم هو المكدر لعيشهم .

وقال : من اشتغل بما لا يعنيه نال العدو منه حاجته في يقظته ومنامه .

وقال سهل : الأمل أرض كل معصية ، والحرص بذر كل معصية ، والتسوية ماء كل معصية ، والندم أرض كل طاعة ، واليقين بذر كل طاعة ، والعمل ماء كل طاعة ، ويقدر ما تهدم من دنياك تبني لآخرتك ، ويقدر ما تخالف نفسك وهواك وشهوتك ترضى مولاك ويقدر ما تعرف عدوك وعداوته - يعنى إبليس - تعرف ربك .

وقال : وسمعت سهلاً يقول : إذا جنك الليل فلا تأمل النهار حتى تسلم ليلتك لك ، وتؤدى حق الله فيها ، وتنصح فيها لنفسك ، فإذا أصبحت فكذلك .

وقال : الفرح كله فى تدبير الله لعباده .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول : مخالطة الولي للناس ذل ، وتفرده عنهم عز ، وقلما رأيت ولياً لله عز وجل إلا منفرداً .

وكان ، يقول : من أحب أن يطلع الناس على ما بينه وبين الله فهو

غافل .

وكان يقول : قد أيس العلماء فى زماننا هذا من هذه الثلاث خصال : ملازمة التوبة ، ومتابعة السنة ، وترك أذى الخلق .

وكان يقول : العيش على أربعة أقسام : عيش الملائكة فى الطاعة ، وعيش الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى العلم ، وانتظار الوحي ، وعيش الصديقين فى الاقتداء ، وعيش سائر الناس عالماً أو جاهلاً زاهداً كان أو عابداً فى الأكل والشرب والضرورة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، والقوام للصديقين ، والقوت للمؤمنين ، والمعلوم للبهائم .

وكان يقول : من سلم من الظن سلم من التجسس ، ومن سلم من التجسس سلم من الغيبة ، ومن سلم من الغيبة سلم من الزور ، ومن سلم من الزور سلم من البهتان .

وكان رضى الله عنه ، يقول : الله قبة النية ، والنية قبة القلب ، والقلب قبة البدن ، والبدن قبة الجوارح ، والجوارح قبة الدنيا .

وكان يقول : لا يستحق الإنسان الرياسة حتى يصرف جهله عن الناس ويحمل جهلهم ، ويترك ما فى أيديهم ويذل ما فى يده لهم .

وقال : لا يستحق الرجل الرياسة على الخلق إلا إن احتمل أذاهم وبذل لهم ما بيده وزهد فيما بيدهم .

وقال : دخلت الفتنة على العامة من الرخص والتأويلات ، وعلى العارفين من تأخير الحق الواجب إلى وقت آخر .

ومن كلامه رضى الله عنه : الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ، وإذا انتبهوا ندموا ، وإذا ندموا لم تنفعهم الندامة .

وكان ، رضى الله عنه ، يقول : ما طلعت شمس ولا غربت على أهل الأرض إلا وهم جهال بالله ، إلا من يؤثر الله على نفسه وزوجته ودينياه وآخرته ، وأدنى الأدب أن يقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن يقف عند الشبهة .

وكان يقول : إن الله مطلع على القلوب فى ساعات الليل والنهار ، فأىما قلب رأى فيه حاجة إلى سواه سلط عليه إبليس .

وقال سهل : لا تستصغر شيئاً من الذنوب وإن قلّ فإنهم قالوا : أربعة بعد الذنب أشد من الذنب ، الإصرار ، والاستبشار ، والاستصغار ، والافتخار .

وقد قال ابن مسعود - رضى الله عنهما - : إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه فى أصل جبل يخاف أن يقع عليه ، وإن الكافر يرى ذنوبه كذبابة وقعت على أنفه فقال هكذا بيده فطارت .

قوله تعالى : ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾^(١) قال : لما نزلت هذه الآية خطب رسول الله - ﷺ - فقال فى خطبته !

« ألا وإن الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، ألا وإن الآخرة أجل صادق يقضى فيها ملك قادر ، ألا وإن الخير كله بخدافيره فى الجنة ألا وإن الشر كله بخدافيره فى النار ، ألا فاعملوا وأنتم من الله على حذر ، واعلموا أنكم معرضون على أعمالكم ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره﴾ ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره^(٢) .

(١) الزلزلة : ٧ .

(٢) الزلزلة : ٧ ، ٨ .

قال أبو الدرداء رضى الله عنه : إتمام التقوى أن يتقى الله عبده حتى يتقيه فى مثقال ذرة حتى يترك بعض ما يرى أنه حلال خشية أن يكون حراماً : يكون حجاباً بينه وبين الحرام .

سمعت أبا الحسن بن جهضم يقول : حدثنى طاهر بن الحسن ، قال : سمعت إبراهيم البرجى يقول : سمعت سهل بن عبد الله ، يقول : ما أظهر عبد فقره إلى الله فى وقت الدعاء فى شيء يحل به إلا قال الله للملائكته : لولا أنه لا يحتمل كلامى لأجبتك : لبيك .

وقال : حرام على قلب أن يشم رائحة اليقين وفيه سكون إلى غير الله تعالى .

وقال : إذا قام عبد بما يجب لله عليه قام الله بما يجب عليه من الحقوق .

سمعت أبا الحسن بن مقسم ، يقول : سمعت أبا بكر محمد بن المنذر الهجيمى ، يقول ، قال سهل بن عبد الله : الخلق كلهم بالله يأكلون ، وفى عبادته غيره يشركون .

وقال سهل : من دق الصراط عليه فى الدنيا عرض عليه فى الآخرة ، ومن عرض عليه الصراط فى الدنيا دق له فى الآخرة .

سمعت أبا الحسن يقول : سمعت محمد بن المنذر يقول سمعت سهل ابن عبد الله يقول وسأله رجل ، فقال : يا أبا محمد إلى من تأمرنى أن أجلس ؟ فقال له : إلى من تكلمك جوارحه لا من يكلمك لسانه .

وقال : الخشية سر ، والخشوع علانية ، من خشعت جوارحه لم يقربه الشيطان ، قيل فما الخشوع ؟ قال : الوقوف بين يدي الله ، والصبر على ذلك .

قال : وكمال الخشوع ، ترك الآثام في السر والعلانية .

يقول : كفى الله العباد دنياهم ، فقال عز من قائل :

﴿أليس الله بكاف عبده﴾^(١) واستعبدهم بالآخرة ، فقال :

﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾^(٢) .

وفي قوله تعالى : ﴿فلا تجعلوا لله أندادا﴾^(٣) قال سهل :

أى أصدادا ، فأكبر الأصداد النفس الأمارة بالسوء ، المنطلقة إلى حظوظها ومنها ما بغير هدى من الله .

وقال : البلوى قسمان :

بلوى رحمة ، وبلوى عقوبة .

فبلوى الرحمة ، تبعث صاحبها على إظهار مقره وفاقتة إليه تعالى ، وترك تدبير نفسه واختياره .

وبلوى العقوبة ، تبعثه على اختيار نفسه وتدبيرها .

وسئل عن الاسم الأعظم ، فقال :

(١) الزمر : ٣٦ .

(٢) البقرة : ١٩٧ .

(٣) البقرة : ٢٢ .

أروني الأصغر أريكم الأعظم ، أسماء الله كلها عظيمة ، أصدق
وخذ أى اسم شئت يفعل معك » .

وسئل كيف يتخلص العبد من خدعة نفسه وعدوه ؟ قال :
« يعرف فيما بينه وبين الله ، وبعد عرفان حاله فيما بينه وبين الله
يعرض نفسه على الكتاب والأثر ، ويقتدى فى الأشياء بالسنة » .
وقال : « الغضب أشد فى البدن من المرض : إذا غضب دخل عليه
من الإثم أكثر مما يدخل عليه فى المرض » .

وقال : « الله معنا قريب إلينا ، فلا بد لنا من أن نكون معه ، نؤثره
ونطيعه ، فيكون إثارنا له صدقنا بعلمنا فيه » .

ويقول : « إن الله يطلع على أهل قرية أو بلد ، فيريد أن يقسم لهم
من نفسه قسمًا ، فلا يجد فى قلوب العلماء ولا فى قلوب الزهاد
موضعًا لتلك القسمة من نفسه ، فيمن عليهم : أن يشغلهم بالتعب
عن نفسه » .

يقول الله تعالى : ﴿ قل متاع الدنيا قليل ﴾^(١) فسئل ما الدنيا ؟ فقال :
الدنيا كلها جهل إلا موضع العلم ، والعلم كله حجة إلا موضع
العمل به ، والعمل كله هباء إلا موضع الإخلاص ، والإخلاص
لا يتم إلا بالسنة ، ثم قال : دنياك نفسك ، فإذا أفنيتها فلا دنيا
لك .

وقال : « السرور بالله هو السرور ، والسرور بغيره هو الغرور » .

(١) النساء : ٧٧ .

وكان يقول : « إذا خلا العبد من الدنيا وهرب من نفسه إلى الله وسقط من قلبه أثر الخلائق لم يعجبه شيء ، ولم يسكن إلى شيء غير الله قط ، فالله مؤتسه ومؤدبه وكالته وحافظه وجليسه وأنيسه : إياه يناجى ، وله يناجى ، وله ينادى ، وبه يستأنس ، وإليه يرغب ، وإليه يستريح .

قال الله جل ذكره :

طوبى لمن خلقتة فعرفنى ، ودعوته فأجابنى ، وأمرته فأطاعنى ، وورزقته فحمدنى ، وأعطيتة فشكرنى ، وابتليته فصبر لى ، وعافيتة فذكرنى ومدحنى .

وقال : خلق الله الإنسان على أربع طبائع : طبع البهائم ، وطبع الشياطين ، وطبع السحرة ، وطبع الأبالسة ، فمن طبع البهائم : البطن والفرج قال تعالى : ﴿ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ﴾^(١) .

وطبع الشياطين : اللهو واللعب والزينة والتكاثر والتفاخر ، قوله تعالى :

﴿ لعب وهو زينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد ﴾^(٢) .
ومن طبع السحرة المكر والخديعة :
﴿ ويمكرون ويمكر الله ﴾^(٣) .

(١) الحجر : ٣ .

(٢) الحديد : ٢٠ .

(٣) الأنفال : ٣٠ .

﴿يخادعون الله وهو خادعهم﴾^(١) .

ومن طبع الأبالسة الإباء والاستكبار ، قوله تعالى :

﴿إلا إبليس أبى واستكبر﴾^(٢) .

واستعبد الله العباد بالتسبيح والتقديس والتحميد والشكر ، حتى
يسلموا من طبع الشياطين اللهو واللعب يقول في كتابه :

﴿إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله
يسجدون﴾^(٣) .

وقوله : ﴿يسبحون الليل والنهار لا يفترون﴾^(٤) .

ومن طبع السحرة استعبدهم الله بالافتداء بالنبي - ﷺ - بالنصيحة ،
والرحمة ، والصدق ، والإنصاف ، والتفضل ، والاستعانة بالله والصبر
على ذلك إلى الممات .

ومن طبع الأبالسة استعبدهم الله بالدعاء والصرخ والتضرع
والالتجاء :

﴿قل ما يعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم﴾^(٥) .

يسلم به العباد إذ يعتصمون به .

(١) النساء : ١٤٢ .

(٢) البقرة : ٣٢ .

(٣) الأعراف : ٢٠٦ .

(٤) الأنبياء : ٢٠ .

(٥) الفرقان : ٧٧ .

وقوله : ﴿واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا﴾^(١) .

﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾^(٢) .

حتى يسلموا من طبع الأبالسة .

وكان يقول : أصل الدنيا الجهل ، وفرعها الأكل والشرب ، واللباس ، والطيب والنساء ، والمال والتفاخر والتكاثر ، وثمرتها المعاصي وعقوبة المعاصي الإصرار ، وثمره الإصرار الغفلة ، وثمره الغفلة الاستجراء على الله .

وقال : « النية اسم الأسمى ، والطاعات أسامى ، والنية الإخلاص ، وكما يثبت حكم الظاهر بالفعل كذلك يثبت حكم السر بالنية ، ومن لا يعرف نيته لا يعرف دينه ، ومن ضيع نيته فهو حيران ، ولا يبلغ العبد حقيقة علم النية حتى يدخله الله فى ديوان أهل الصدق ويكون عالما بعلم الكتاب وعلم الآثار وعلم الاقتداء » .

وينصح سهل من يحيطون به فيقول لهم : حققوا الخير بالفعل .

قيل له : وكيف لنا أن نحققه بالفعل ؟

قال : بخمسة أشياء ، لا بد لكم منها :

أكل الحلال ، ولبس الحلال ، وحفظ الجوارح ، وأداء الحقوق كما أمرتم به ، وكف الأذى عن المسلمين ، كيلا يذهب بأعمالكم قصاصاً فى القيامة ، ثم استعينوا على ذلك كله بالله حتى يتمها لكم .

(١) آل عمران : ١٠٣ .

(٢) آل عمران : ١٠٢ .

قيل له : فكيف تصح للعبد هذه الأحوال ؟ قال :

لا بد له من عشرة أشياء ، يدع منها خمسا ويتمسك بخمس :

يدع وساوس العدو ، ويتبع العقل فيما يزجره ، ويدع اهتمامه لأمر الدنيا ويتركها لأهلها ، ويهتم بالآخرة ، ويعين أهلها ، ويدع اتباعه الهوى ، ويتقى الله على كل حال ، ويترك المعصية ، ويشتغل بالطاعة ، ويدع الجهل والإقامة عليه حتى يحكم عمله ، ويطلب العلم ويعمل به .

ويقول سهل : لا يكون العبد مقيماً على معصية إلا وجميع حسناته ممزوجة بالهوى لا تخلص له حسناته ، وهو مقيم على سيئة واحدة ، ولا يتخلص من هواه حتى يخرج من جميع ما يعرف من نفسه مما يكرهه الله .

وقال : أول ما ينبغي للعبد أن يتخلق به ثلاثة أخلاق وفيها اكتساب للعقل :

احتمال المثونة ، والرفق فى كل شيء ، والحذر أن يميل فى الهوى ، ومع الهوى أو إلى الهوى .

ثم لا بد له من ثلاث أحوال أخر ، وفيها اكتساب العلم العالى :

الحلم ، والتواضع ، والإنصاف .

ثم لا بد له من ثلاثة أخر ، وفيها اكتساب المعرفة وأخلاق أهلها :

السكينة ، والوقار ، والصيانة .

وقال : من أخلاق الإسلام والإيمان : الحياء ، وكف الأذى ، وبذل المعروف ، والنصيحة ، وفيها أحكام التعبد .

وقال : أركان الدين أربعة : الصدق ، واليقين ، والرضا ، والحب .

فعلامه الصدق : الصبر ، وعلامة اليقين : النصيحة ، وعلامة الرضا ترك الخلاف ، وعلامة الحب الإيثار ، والصبر يشهد للصدق .
وقال : الجاهل ميت ، والناسي نائم ، والعاصي سكران ، والمصر ندمان .

وقال سهل : لا تفتش عن مساوئ الناس ورداءة أخلاقهم ، ولكن فتش وابحث في أخلاق الإسلام ما حالك فيه حتى تسلم ويعظم قدره في نفسك وعندك .

وكان يقول : إذا قام العبد بما لله تعالى عليه ، فحقيق على الله أن يقوم بما كان العبد قائماً به لنفسه وقال :

لا تفتش عن مساوئ الناس ومعرفة أخلاقهم ، ولكن فتش عن أخلاق الإسلام وما حالك فيه حتى يعظم قدره في نفسك ، وتجتهد في التلبس بتلك الأخلاق .

وقال : « اعلم أن لله تعالى أمانة في سمعك وبصرك ولسانك وفرجك ، وظاهرك ، وباطنك ، عرضها عليك ، فإن لم تحفظها خنت . والله لا يحب الخائنين » .

وقال : العاصون يعيشون في رحمة العلم ، والمطيعون يعيشون في رحمة القرب .

وقال في تفسير قوله تعالى :

﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾^(١) قال « العمل الصالح ما كان خالياً عن الرياء مقيداً بالسنة »

(١) الكهف : ١١٠ .

خاتمة

لقد أراد سهل أن يعود بفكرة العلم والعلماء إلى الجو الإيماني الصادق ، وحديثه عن العلم والعلماء يستأهل التسجيل .

إن خيار الناس ، فيما يرى ، العلماء الخائفون ، وخيار الخائفين المخلصون الذين وصلوا إخلاصهم بالموت ، رضى الله تعالى عنهم .
والعلم فى الدين ليس أهواء ، ولا ابتداءً ، ولا اختراعًا ، ولكنه اتباع ، ويقول سهل بمناسبة قوله تعالى :

﴿ قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾^(١) قال :

العلم الكتاب والافتداء ، لا الخواطر المذمومة ، وكل علم لا يطلبه العبد من موضع الافتداء صار وبالاً عليه ، لأنه يدعى به .

ومنح الله ومواهبه كثيرة ، ولكن :

ما أعطى أحد شيئاً أفضل من علم يستزيد به افتقاراً إلى الله .

ويتحدث سهل عن الإخلاص فى العلم وعن شكره فيقول :

الدنيا كلها جهل إلا العلم فيها ، والعلم كله وبال إلا العمل به ،
العمل كله هباء منثور ، إلا الإخلاص فيه ، والإخلاص فيه أنت منه
لى وجل حتى تعلم هل قبل أم لا .

(١) الزمر : ٩ .

أما شكر العلم والعمل ، وشكر العمل زيادة العلم ، فهو أبدأ في هذا وهذه حاله .

ويربط سهل برباط وثيق بين العلم والعمل فيقول بمناسبة قوله تعالى :

﴿وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه﴾^(١) :

كل عالم أعطى علم الشر وليس هو مجاناً للشر فليس بعالم ، ومن أعطى علم الطاعات وهو غير عامل بها فليس بعالم .

وكما للخمر سكر فإن للعلم سكرًا ؛ وقد دخل على سهل أبو حمزة

الصوفي فقال :

أين كنت يا أبا حمزة ؟ قال :

كنا عند فلان ، وأخبرنا أن السكر أربعة .

فقال : أعرضها على .

فقال سكر الشراب ، وسكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر

السلطنة ؛ فقال : وسكرتان لم يخبرك بهما ، فقال : ما هما ؟

فقال : « سكر العالم إذا أحب الدنيا ، وسكر العابد إذا أحب أن

يشار إليه » .

والعالم الرياني لا يخوض في دنيا الناس ؛ يقول سهل :

« وكل عالم خاض في الدنيا فلا تصنع لكلامه بل يتهم فيما يقول

لأن كل إنسان يدفع ما لا يوافق محبوبه .

(١) هود : ٨٨ .

وهذا الاتجاه بالعلم إلى جو العظة والعبرة والإخلاص والتجريد هو الاتجاه الصادق .

وسهل رضى الله عنه ما كان عالماً فحسب ، وإنما كان مصلحاً للعلم .

أما من ناحية علمه فإنه يمثل الطابع العام لعلوم الصوفية :

إن العلم فى المجال الصوفى يدور حول القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف يدرسهما فى عمق ، وذلك ليأخذ منهما الأساس الصادق للقدوة والتأسى .

إن الصوفى يرى فى رسول الله ﷺ الأسوة ، ويدرس كل ما يتصل بحياته وبدعوته من كتب الأحاديث ، ومن كتب السيرة حتى يمكنه أن يستجيب للقرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً﴾^(١) .

أما القرآن الكريم فإنه نور الأنوار من اتصل به عن قرب مستجيباً إلى هديه أشرق نوره فى قلبه وفى بصيرته ، وهُدَى إلى الصراط المستقيم .

وسهل رضى الله عنه لا يعمل من ترداد ما يحث على الاقتداء ، وعلى تحاذى القرآن والسنة أساساً للسلوك والأخلاق وللتشريع وللعقيدة وللسير لى الله عن بصيرة .

(١) الأحزاب : ٢١ .

وإذا أخذ الناس الذين فى قلوبهم زيغ يبحثون فى متشابه القرآن مما يتصل بالذات أو بالقدر والجبر والاختيار ، فإن سهلاً يوجه التيار فى رفق وحكمة إلى الهداية الحقّة .

والهداية الحقّة هى أن تسير إلى الله من باب الذلّة والانكسار ، من باب الخشوع والخضوع ، ... من باب القدوة والاتباع .
ومن دراستنا لسهل نرى أنه :

درس واجتهد فى التفسير وفى السيرة وانتهى إلى هذه النفائس فى التفسير وفى التوجيه على النسق النبوى .

وإذا كان العلم لا يطلب لذاته ، وإنما هو وسيلة تنتهى إلى العقيدة الصادقة والخلق الكريم والسلوك المستقيم والعمل والإخلاص فى كل ما يأتى الإنسان وما يدع ، فإن سهلاً انتهى من علمه إلى الثمار الصادقة للعلم ، وكان مثلاً كريماً للخلق الكريم .

والعلم والعمل هما القدر المشترك بين الصوفية جميعهم تقريباً .
وهذان العنصران ظاهران فى حياة سهل رضى الله عنه .
على أن الرسالة الكبرى للصوفية إنما هى الهداية إلى الله تعالى :
هداية الحيارى ، وهداية الشاكين ، وهداية العصاة ؛ إنهم يدعون إلى الله على بصيرة ويدعون إليه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلون بالتي هى أحسن ، إنهم يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله .

وهذه الرسالة هى رسالة رسولنا وحبينا محمد ﷺ ، وقام بها الخلفاء الراشدون من بعده والصحابة رضوان الله عليهم ، ولم تكن هناك إذ

ذاك تفرقة بين عالم الدين ، ورجل الدنيا ، فقد جمع الصحابة رضی الله عنهم بين علماء الدين ورجال الأعمال في وحدة واحدة منسجمة سخرت فيها جميع الأعمال لأن تكون في سبيل الله ، وكما كان رسول الله ﷺ قدوة كان الصحابة رضی الله عنهم قدوة .

وحيثما أصبحت الخلافة ملكاً عضوداً تخصص قوم في علوم الدين كان : العلماء .

ولقد أخلص العلماء وجههم لله ، لا يبغون من وراء ذلك مالا لا جاهاً ولا ملذات فانية : إنهم لم يشركوا بالله أحداً في وجههم ، كان المثل الكريم لهؤلاء إنما هم الأئمة الفقهاء والأئمة المحدثون من ثال : مالك والشافعي وابن حنبل وأبي حنيفة وسفيان الثوري عشرات آخرين .

كان هؤلاء يقومون على سلامة المجتمع في سلوكه وفي عقيدته في عبادته وكانوا يقومون بواجب النصح للرعية والراعي ، وكان عاة يتقبلون النصح أحياناً ويضيقون به أخرى ، ولكن العلماء سواء باق الرعاة بهم أم استجابوا وكانوا يمضون في طريق الهداية لا يصرفهم ذلك صارف .

ولكن الحكام وقد تخلصوا هم من عبء الدعوة والهداية ، حيث بها العلماء أخذوا يستولون على هؤلاء العلماء تدريجياً عن طريق ظائف والجاه ، وتدرج هذا شيئاً فشيئاً فقد بدأ ضعاف النفوس يرون تحت راية الحكام ليصيبوا من حطام الدنيا ، وأخذت الدائرة مع شيئاً فشيئاً حتى أصبحت شاملة أو شبه شاملة .

وهنا ظهر في المجتمع طائفة الصوفية يقومون بما كان يقوم به الدعوة منذ بدء الإسلام .

إنهم أصبحوا خلفاء الرسول ﷺ في الدعوة ، وهؤلاء الخلفاء كانت نشأتهم ، وكان ميلادهم مع نشأة الإسلام وميلاده إلا أنه لم يكن هناك كلمة - بالنسبة للدعاة - أشرف من كلمة الصحابة ، ثم كانت كلمة التابعين هي العلم الشريف لكل من تلاقى مع الصحابة : صحابة رسول الله ﷺ .

لقد ولد التصوف مع الإسلام ؛ والقرآن والسنة وسيرة الرسول ﷺ كلها أعلام هداية في طريق السالكين إلى الله سبحانه ، إنها أعلام هداية من حيث الأساس الذي يقوم عليه الطريق ، وأعلام هداية من حيث المعراج في السلوك ، وإذا تأملت في طريق الصوفية أو في غابات الطريق فستجد أنه يقوم على الإسلام ويسير على هداه .

وقام الصوفية بدورهم خير قيام : لقد اهتدى بهم الكثيرون وأسند على أيديهم أقطار بأكملها ، والإسلام في أندونيسيا ، وفي هذه الأقطار البعيدة عن مركز الدعوة الإسلامية الأولى إنما هو من آثار الصوفية إن الإسلام لم ينتشر بسيف ، وإنما انتشر بالدعوة بالحسنى وبالافتناع ، وبالقدوة .

ولقد كان الصوفية بسمتهم الوقور ، وبالنور يشرق في وجوههم وبالثقة التي فرضت نفسها فيهم يمثلون الخلافة لرسول الله ﷺ > تمثيل ، واهتدى بهم من أحب الله له الهداية وانصرف عنهم من يكتب الله له السعادة .

وهذه الرسالة لا مناص من أن تؤسس على العلم ، ومن هنا كان الصوفية معنيين بالعلم قرآنًا وسنة وسيرة فكان فيهم المفسرون وكان فيهم المحدثون ، وكانوا علماء هداة مرشدين .

وسهل خير مثال لهذا الجانب العلمى ، ولكنه مثال من مئات أو من ألوف كلهم على نسقه يسير فى تيار الهداية مؤسسًا ذلك على العلم .

ولابد فى الحياة من أناس تتوافر فيهم الثقة حتى يطمئن الناس إلى أن المثل الكريمة مازالت موجودة ، وأن الخير مازال باقيا ، وإلا شقى الناس بعدم الثقة بعضهم فى بعض ، وإذا كانت النفس الأمانة بالسوء تهدم بمعاول من الشر الثقة فى النفوس فإن النفوس التى اطمأنت إلى الله ورضى الله عنها ، وأحبت الله ، وأحبها الله تعيد بناء الثقة ، وتعمل على نشر المثل الكريمة بسلوكها وسمتها ودعوتها .

وهذه المثل الكريمة ضرورة للمجتمع ، والتصوف إذن ليس ترفًا وإنما هو ضرورة لا يستقيم مجتمع خير بدونها ، لأنه لا يستقيم مجتمع بدون الإيمان بأن الخير لم يزل موجودًا .

ومحاربة التصوف إنما هى محاربة للمجتمع ومحاربة لبث الثقة فى المجتمع .

ورضى الله عن الأعلام الهداة منذ ابتداء الإسلام إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، ورضى الله عنهم فى جنة الخلد مأواهم ومستقرهم ، ورضى الله عنهم حينما يتحقق واقعيا ما يقوله الرحمن الرحيم الودود :

﴿وجوه يومئذ ناضرة • إلى ربها ناظرة﴾^(١) .

وصلى الله وسلم وبارك على مشرق الهداية خير خلق الله وصفوته
من عباده الذى قال له الحكيم العليم :

﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون
وجهه ، ولا تعد عينك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، ولا تطع من
أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾^(٢) .

والذى قال له : ﴿قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب
العالمين • لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾^(٣) .

(١) القيامة : ٢٣ .

(٢) الكهف : ٢٨ .

(٣) الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣ .